طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
لائحة القومي العربي

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

طلقة تنوير 63: صفحات مطوية، والذكرى السابعة لرحيل ناجي علوش

كلمة العدد: عندما يكون الدفاع عن فلسطين مدخلاً لضرب العروبة: رئيس السنغال نموذجاً

عبدالناصر بدروشي

يُعرّف الاحتلال على أنه السيطرة المباشرة التي تمارسها دولة ما أو جماعة من الناس على شعب من الشعوب والتحكم بمصيره واستغلال خيراته لمصلحة البلد المحتل.

قديماً، اتخذ الاحتلال شكلاً عسكرياً مباشراً، أي أن إخضاع الشعوب كان يتم عبر استخدام القوة العسكرية الغاشمة وانتقال الجيوش الغازية إلى الأراضي المراد احتلالها.

على مر التاريخ لاقت قوى الهيمنة الخارجية مقاومةً شرسة استهدفت قواتها العسكرية والأمنية وعملاءها المحليين، وكانت تتكبد الكثير من الخسائر البشرية والمادية في سبيل إدامة سيطرتها على المناطق التي تحتلها.

لقد بات من الواضح اليوم أن الإمبريالية تعلمت الكثير من تجاربها، لا سيما بعد حروب التحرير التي خاضتها الشعوب المضطهدة حول العالم، والخسائر الفادحة والهزائم العسكرية التي مني بها معسكر الأعداء مع تصاعد أعمال المقاومة (فيتنام والجزائر والعراق وليبيا وسورية ومصر نموذجاً)، لهذا جددت الإمبريالية أسلوبها واعتمدت أسلوباً جديداً يجنبها تكبد خسائر مباشرة ألا وهو «الحرب الناعمة» .

أفردت لائحة القومي العربي العدد الـ32ــ من «طلقة تنوير» لتسليط الضوء على الجيل الرابع من الحروب، وليس الهدف من هذا المقال تناول موضوعة الجيل الرابع من الحروب مجدداً بقدر ما هو تفكيك خطاب جديد بات يُروج له حديثاً بكثافة، وهو الخطاب الذي ينطلق من زعم الدفاع عن الإسلام والمقدسات العربية ذات الطابع الإسلامي، مثل القدس ومكة، كمدخل للإجهاز على العروبة. قبل الشروع في تحليل هذا الخطاب سنحاول تحديد أحد أهم الأسباب الخارجية المؤدية إلى انحدار الواقع العربي وترديه:

بحكم موقعها الجغرافي الذي يتوسط العالم وبسبب امتلاكها كل المقومات التي تمكنها من السيطرة على الممرات التجارية العالمية البرية والبحرية والجوية،

طلقة تنوير 63: صفحات مطوية، والذكرى السابعة لرحيل ناجي علوش

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 آب 2019

ـ كلمة العدد: عندما يكون الدفاع عن فلسطين مدخلاً لضرب العروبة/ عبدالناصر بدروشي

ـ العرب ومشروع الوحدة العربية/ ناجي علوش

ـ التاريخ والحاضر يشهدان: قدَر المقاومة الانتصار/ كريمة الزوبي

ـ حركة التحرير الشعبية العربية (1978-1992): إضاءة سريعة/ إبراهيم علوش

ـ قراءة في رسالة عبد الكريم الخطابي إلى جمال عبد الناصر/ إبراهيم حرشاوي

ـ الجذرية السياسية كطوق نجاة للأمة العربية/ فارس سعادة

ـ قصيدة العدد: حكاية كبيرة/ ناجي علوش

ـكاريكاتور العدد: موقف الأنظمة العربية من المخططات الصهيونية

لمتابعتنا انظر:

لمتابعتنا على فيسبوك، ابحث عن:
لائحة القومي العربي/ الصفحة الرسمية

روابط صديقة:
موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:
arab.nationalist.moderator@gmail.com

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

وبسبب ما تمتلكه من ثروات طبيعية وبشرية، لطالما كانت أمة العرب محط أطماع أمم عديدة، بعضها جارٌ وبعضها وراء البحار، حتى إن أحد أهم أسباب الصراعات الكبرى التي دارت بين قوى الهيمنة الأجنبية كان حول نصيب كل دولة من الجغرافيا العربية.

اتفق أعداؤنا على أن الوحدة العربية خطٌ أحمرٌ، إذ ليس من مصلحتهم أن تقوم دولة وحدة عربية، فقيام هكذا دولة كفيل بخسف كل أطماعهم وسيشكل توازناً كونياً جديداً ينهي حقبة تصدر قوى الهيمنة الغربية للمشهد السياسي العالمي. قديماً فُرضت التجزئة قسراً عبر الاحتلال العسكري المباشر، ولما تصاعد المد التحرري وقويت شوكة المقاومة المسلحة اضطر المحتل للرحيل ولكنه أوكل مهمة الحفاظ على التجزئة إلى حكامٍ لونُ بشرتِهم كلونِ بشرتِنا ولسانهمُ هو لسانُنا إلا أن أفئدتهم متعلّقة بعواصم الغرب والعروبة منهم براء.

رغم تفاني أغلب حُكام العرب في الحفاظ على المصالح الأجنبية كشرط أساسي لبقائهم في الحكم، إلا أن قوى الهيمنة الخارجية تدرك جيداً أن ما يُفرض بالقوة زائلٌ لا محالة، وما هي إلا مسألة وقت حتى تثور الجماهير العربية على قمع جلاديها وعلى واقع التجزئة، ولا مفر من الوحدة العربية إلا في حال تم تشويه وعي الجماهير وضرب الهوية الوطنية الجامعة.

حتى يُقبر حلم الوحدة العربية لا بد من الإجهاز على روحه، أي لا بد من الإجهاز على الهوية القومية العربية في قلوب وعقول المواطنين العرب، ومن هنا أصبح استهداف الهوية القومية العربية شرطاً أساسياً حتى تتمكن أي قوة من إخضاعنا، وتعي قوى الهيمنة الأجنبية جيداً أن ثقافة المقاومة، بالإضافة للشعور بالعزة القومية، يقف سداً منيعاً أمام أطماعها.

سنتطرق في مقالنا هذا تحديداً إلى المساعي المشرقية في الهيمنة على الأمة العربية، لنجيب على بعض التساؤلات التي يطرحها الشباب العربي اليوم في ظل انتشار خطاب ما يسمى بـ"الصحوة الإسلامية".

للقارئ أن يتساءل: لمذا عمد الأوروبيين إلى تقسيمنا بينما بقيت الجغرافيا العربية موحدة تحت الحكم العثماني؟ ولماذا لم يسعَ الأتراك إلى تجزئة الوطن العربي؟ فكيف نجحوا في أن يحكموا العرب ردحاً طويلاً من الزمن على عكس الأوروبيين؟

الأتراك مثل الأوروبيين لهم جغرافيتهم المعزولة طبيعياً عن الفضاء العربي، الشيء الذي أدى إلى تشكل ثقافة ولغة خاصة بهم مختلفة عن ثقافتنا ولساننا، إذ بينما تم التصدي للاحتلال الغربي للأقطار العربية بعنفٍ ومنذ اللحظات الأولى، فقد نجح العثمانيون في تطويعنا وإلحاقنا بهم على شكل ولايات تابعة للباب العالي، كل ذلك مر عبر تخدير الوعي القومي العربي وتغييبه لصالح الانتماء الديني. لذلك لم يمانع الأتراك في الإبقاء على الجغرافيا العربية موحدة لأنهم تمكنوا من ابتلاعها كاملة.

بعد مرور عقودٍ طويلةٍ من النهب والاستغلال العثماني للعرب وتزايد جشع وغرور الأتراك الذي أدى إلى ممارسات عنصرية في حق العرب ومع مرور الوقت وتزايد حجم القمع الذي تعرض له أسلافنا، سقط قناع الدين الذي تستر خلفه الأتراك لقرونٍ وساهم الاضطهاد في إحياء الوعي القومي العربي وانطلاق أعمال مقاومة عربية في مناطق متفرقة من الوطن العربي عبر عدة محطات زمنية.

اليوم وبعد إنتهاء حقبة الإحتلال العثماني، نلاحظ عودة قوية لذات الخطاب الذي يسمح لنفسه بأن يتخذ من الدفاع عن العرب والأراضي العربية مدخلاً ومطيةً لاستهداف الهوية القومية العربية، ونورد في هذا السياق الخطاب الذي ألقاه الرئيس السنغالي "ماكي سال" في اجتماع شعبي لنصرة فلسطين كنموذج حي، وهو موجودٌ على الإنترنت لمن يبحث عنه.

يقول رئيس السنغال: "الإمام البخاري ليس عربي.. الإمام النسائي ليس عربي.. صلاح الدين ليس عربي.. السلطان عبد الحميد ليس عربي.."

ثم يكمل كلمته وسط تكبير الجماهير السنغالية:

”لماذا نعتمد على العرب؟ لا لن نعتمد عليهم، الإسلام دين الله.. والخطاب القرآني لم يوجه للعرب وإنما للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وإذا تقاعس العرب فنحن لن نتقاعس، سنضحي بأرواحنا وممتلكاتنا وبكل ما أتانا الله لنحرر القدس إن شاء الله..“

والطريف أن هذا الخطاب جاء بعد رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي بين السنغال والكيان الصهيوني كما نجد في هذا الرابط:

http://ar.timesofisrael.com/دولتان-اسلاميتان-في-افريقيا-ترسل-سفرا/

كما جاء الخطاب بعد تعهد السنغال بحصول الكيان الصهيوني على مقعد مراقب في الاتحاد الإفريقي، كما جاء في هذا الرابط:

https://www.masrawy.com/news/News_Press/details/2017/6/4/1099267/السنغال-تدعم-إسرائيل-في-سعيها-للحصول-على-صفة-مراقب-بالاتحاد-الإفريقي-

ظاهر كلمة الرئيس السنغالي إذن هو نصرة فلسطين، وجوهرها تحقير العرب ومهاجمة العروبة واستبدالها برابطة الإسلام، ويقوم هذا الخطاب على استغلال تخاذل الحكام العرب تجاه فلسطين واستخدامه في الطعن في العروبة فيلصق خيانة حكام الخليج العربي مثلا بالعروبة لتصبح العروبة لعنة على المسلمين، كل هذا من أجل دفع المسلمين العرب إلى التنصل من التهمة عبر خلع عروبتهم.. بالرغم من أن واحداً من كل ثمانية سنغاليين هو عربي ناطق باللهجة الحسانية، أقرب اللهجات العامية للفصحى.

إذا كان الإسلام هو الرابطة التي تلغي القومية، فلماذا لم تتخلَ الأقوام المسلمة عن هويتها ولغتها لتذوب في العروبة باعتبار أن الإسلام الذي جاء بلسان عربي وحياً وسُنّةً؟

لماذا لم يتخلَ الفرس عن هويتهم القومية؟ ولماذا يحافظ الأتراك على لغتهم وهويتهم؟ ولماذا لم تتعرب ماليزيا وباكستان والسنغال؟!

لماذا يفترض بنا نحن العرب فقط أن نتخلى عن هويتنا القومية لصالح مسلمين آخرين يصرون على التشبث بهوياتهم القومية وعلى حكمنا باسم الإسلام؟!

الغرض من الدعوات الإسلامية التي يرفعها جماعة الإسلام السياسي اليوم هو شطب هويتنا العربية ومحاولة قتل شعورنا بالعزة القومية عبر دفعنا لتحقير أنفسنا، لأن انتشار أجواء مفعمة بالعزة القومية سيقف حائلاً أمام مشاريع من يرغبون في السيطرة علينا وإخضاعنا لسلطانهم.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

ليس عبثاً أن ينتشر خطاب يرمي إلى سلخ العرب عن هويتهم القومية ويدفعهم إلى تحقير ذواتهم وجلد ذواتهم وإلصاق كل الصفات المشينة بهم كالخيانة والغدر والتفريط في الأرض والعرض.

نذكر رئيس السنغال ماكي سال وأردوغان ومن هو على شاكلتهما أن العرب هم أول من علم شعوب الأرض معنى الوفاء والكرامة والفداء ونصرة المظلوم وإكرام الضيف وصيانة العرض، وإن جار الزمان علينا وحكمنا رؤساء وملوك أغلبهم ديوث وخائن وعميل فإننا سنعيد للأمة مجدها، وكما مررتم بفترات مُرغت فيها أنوفكم في التراب وعدتم إلى قوتكم فسنعود حتماً إلى مجدنا وقوتنا.

رئيس السنغال استعرض جمعاً من الناس ليسوا عرباً لينكر فضل العرب، ونحن نذكره بأن محمداً بن عبد الله الرجل الذي قلب موازين العالم والذي يتبعون دينه اليوم هو عربي، وأن خلفاءه الذين يحتفون بهم هم عرب، وأن العلماء الذين ينفي ماكي سال عروبتهم أمثال الخوارزمي هم رجال أزهر اكتسبوا علمهم في أوج عزة العرب وبلسان العرب وكتبوا بلسان العرب، وهم عرب لأن قوميتنا ليست عرقية أو عنصرية مثل تعصبهم القومي الذي يخفونه تحت عباءة الإسلام.

رئيس السنغال نسي أن العرب حازوا الشرف عندما أنجبوا قائداً فذاً ورجلاً مثل عمر المختار الذي أذاق الإيطاليين الويل، وعبد الناصر الذي كان رقماً صعباً ومحدداً في المعادلات الإقليمية والدولية، كما حُزنا الشرف كله وضربنا مثالاً للعربي الذي لا يتولى يوم الزحف من خلال البطل الشهيد صدام حسين.

لرئيس السنغال ومن هم على شاكلته نقول بأن الدماء التي تسري في عروق سيد المقاومة اللبنانية الذي نَصَرَ اللهَ فنَصَرَهُ، الرجل الذي يؤرّق ليل الصهاينة اليوم هي عربية وليست تركية ولا فارسية ولا سنغالية، والبطن التي أنجبت السيد الرئيس القائد بشار الأسد هي عربية قحة، وهو فارس هذا الزمان الذي أرّق الإمبريالية والذي اجتمعت عليه شياطين الإنس فلم تقدر عليه.

لذلك نؤكد على:

* إن مهمة الدفاع عن الأمة العربية لا يمكن أن يضطلع بها إلا من كان مؤمناً بالعروبة كهوية حضارية جامعة وصمام أمان يحمينا من الانقراض.
* الدفاع عن الأمة العربية يكون عبر الانخراط في عمل جماعي منظم يحمل مشروعاً ورؤية وتصوراً للوحدة والتحرير والنهضة، وليس عبر النضال الفردي أو ضمن فضاءات ومنظمات العمل الخيري أو التنموي.
* إن الخطاب الذي يحقّر العرب لا بد من أن يقابله عمل مكثف لتعزيز الشعور بالعزة القومية لدى شباب الأمة، فلا يمكن لأمتنا أن ترتقي أو أن تتحرر وشبابها مشروخ الهوية وممزق في انتمائه.

أخيراً، وليس آخراً، نقول أن كلّ من يغتنم فرصة تخاذل وسقوط عديد الحكام العرب لشتم وسبّ العروبة من أصلها ولينهال على العرب عموماً بالتقريع والتقزيم والاحتقار للمشروع القومي العربي في حد ذاته، كل من يغتنم ظروف الانحدار ليسبّ العرب والعروبة عموماً، هو عدوٌ كاره للعرب والعروبة وليس كارهاً للخونة من بني جلدتنا. والحديث النبوي الشريف القائل "من تكلّم العربية فهو عربي" إنما يؤكّد على أن مشروعنا القومي هو مشروعٌ لغويٌ تاريخيٌ جغرافيٌ وليس أبداً عرقياً دموياً كما يروّج هؤلاء الأعداء، أعداء العرب والعروبة.

لائحة القومي العربي

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

العرب ومشروع الوحدة العربية

ناجي علوش

(أحد الفصول التي شارك فيها المناضل والمفكر القومي ناجي علوش في كتاب "الحركة العربية القومية في مائة عام/ 1875-1982"، إشراف وتحرير ناجي علوش، في مادة كتبت عام 1996 تحاكي في الكثير من جوانبها واقعنا الراهن، نعيد نشرها اليوم في الذكرى السابعة لرحيله في 29/7/2012)

- 1 -

لنعترف، بادئ ذي بدء، أن مشروع الوحدة العربية الذي أطلق منذ أواخر القرن الماضي لم يتحقق. ولنعترف أيضاً أننا اليوم، لسنا أمام مشروع جاهز قابل للتنفيذ على الصعيدين النظري والعملي. ولنعترف، فوق ذلك، أننا اليوم أمام مخاطر الشرذمة، أكثر من أي وقت مضى، لثلاثة أسباب رئيسية:

الأول، تفرد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بالقيادة العالمية، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وتوافر الظروف الملائمة لممارسة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية هيمنتها العالمية، وتطبيق سياساتها في الشرذمة والتفكيك والتركيب، كما جرى في الاتحاد السوفييتي، وكما لا يزال يجري في يوغوسلافيا، وأنحاء مختلفة من العالم.

ويتضمن هذا البرنامج إثارة أوسع الصراعات لاستنزاف القوى، وتهديم البنى الاجتماعية والاقتصادية وبناء تجمعات اقتصادية "ما فوق قومية" (1)، ومن ثم استخدام القوة لفرض السلام الأمريكي الذي يبرر استخدام القوة الأمريكية باسم الأمم المتحدة، وبحجة إنقاذ الآمنين وإطعام الجياع. ولكن استخدام القوة يُتبع هذه البلدان ويبقيها ممزقة حتى ولو جرى الحديث عن عودة الدولة، إلخ...

الثاني، تخلخل النظام القُطري العربي نتيجة العجز الشامل الذي أكده في كل الميادين:

1 – ففي ميدان التنمية، برز فشل تام لأن الاستيراد ما زال يتسع، حتى في قضايا الغذاء، ولأن مستوى المعيشة ما زال يتدهور بالنسبة للأكثرية من الشعب؛ وتتعمق الآن أزمة المديونية، والأزمة الاقتصادية العامة، بسبب إسراف الفئات الحاكمة وتبذيرها، وخلل برامجها الاقتصادية العامة، ونتيجة التزايد السكاني الكبير، وانخفاض أسعار الخامات.

2 – وفي ميدان الدفاع عن الوطن، أثبتت هذه الأنظمة أنها ضعيفة أمام عدو مثل العدو الصهيوني، الذي استطاع أن يحتل الأرض، وأن يفرض الحل الذي يريد. ويتفاقم الأمر، في هذا الميدان، منذ توقيع اتفاقيتي كامب ديفيد. وجاءت حرب الخليج (1990-1991) لتكشف درجة الهشاشة والضعف، ولتثبت "استسلامية" النظام القُطري العربي. وتأتي الآن اتفاقية غزة-أريحا لتخطو خطوات واسعة نحو المزيد من الاستسلام العربي.

3 – وفي ميدان العلاقة بين الأنظمة وجماهيرها تزداد العلاقات تدهوراً نتيجة ما تمارسه هذه الأنظمة من قمع، وبسبب تمسك الفئات الحاكمة بمبدأ اغتصاب السلطة، والاستخفاف بإرادة الشعب.

وهذا التخلخل، إذا ما نظرنا إليه، ضمن السياسة الإمبريالية العامة، والأمريكية خاصة، وجدنا أنه يدفع إلى تفكيك هذه الأقطار، كما حالة مصر والجزائر والعراق والسودان، وكما هو مخطط بالنسبة لأي قطر عربي آخر، من سورية إلى المغرب.

الثالث، تراجع القوى الوحدوية السياسية العربية الشعبية في العقدين الماضيين وتحولها إلى قوى ثانوية في الصراع الكبير.

ونحن الآن نعيش دون حركة عربية قومية موحدة، ودون حزب يحظى بتأييد قومي واسع خارج حدود قطره. وفي هذا الوقت، تفرّخ الأنظمة القطرية أحزاباً وقوى قطرية تكرس الواقع القطري وتدافع عنه. وأمام ذلك كله، يبدو الوضع العربي، أميل إلى التمزق والتشرذم.

فكيف سننظر إلى قضية الوحدة العربية؟

- 2 -

إن قضية الوحدة، في هذا الواقع، تبدو أكثر ضرورة من أي وقت مضى. فهي، أولاً، ضرورة لمواجهة مخاطر العدوان والمطامع الخارجية، وخاصة مخاطر العدوان الأمريكي والدول الإمبريالية عامةً، وإن كانت مطامع الولايات المتحدة الأمريكية هي الأساس، لأن حكومة الولايات المتحدة، التي انتزعت القيادة العالمية، لديها برنامج محدد لهذه البقعة من العالم التي تضم الوطن العربي، وسائر أقطار "الشرق الأوسط".

وتترافق مع هذه المطامع مطامع الحركة الصهيونية وحكومة "إسرائيل" بالسيطرة على الوطن العربي، وخاصة بلاد الشام، ووادي الرافدين ووادي النيل. وتأتي من جهة أخرى مطامع دولتي تركيا وإيران، لتزيد الطين بِلة، ولتفتح أبواب كل الاحتمالات الخطيرة.

وهي، ثانياً، ضرورة لوضع أساس تنمية اقتصادية، توفر المواطنين المتزايدة، وحاجات بناء دولة كبيرة وقوية، وتواجه مخاطر المجاعة والمديونية والتكاثر السكاني المتزايد.

وكلما اشتد العدوان، واتسع مدى الاستسلام، وتفاقمت الأزمة الاقتصادية، كلما طرحت قضية الوحدة حضورها، رغم كل محاولات البلبلة والتشتيت والشرذمة.

- 3 -

ولكن هذا الشعور الذي يخامرنا، ونحن نرى ما نرى من عوامل الضعف والانقسام، ومخاطر العدوان والاستسلام، يواجه، بالإضافة إلى ما ذكرنا من عوائق، عوامل أخرى، من أبرزها اثنان:

الأول، فشل دعوات الوحدة السابقة، دون حاجة لمناقشة الأسباب، لأن توالي الفشل، لا يشجع على التفاؤل.

الثاني، غياب أية قوة تبدو مؤهلة، سواء كانت دولة أم حزباً، فقد حوصرت محاولة جمال عبد الناصر، ومحاولات حزب البعث في سورية والعراق، كما ضربت محاولة محمد علي في القرن الماضي. ونمت في ظل الجامعة العربية كل مقومات القُطرية. ولم ينجح أي اتحاد ثنائي، أو تجمع إقليمي، في اختراق أسوار القُطرية التي ترتفع.

ونمت بالمقابل اتجاهات أيديولوجية، تتخطى الوحدة القومية، كاتجاه الاستسلام السياسي الذي يعتبر القومية العربية مؤامرة استعمارية (2)، أو اتجاه العدمية القومية Cosmopolitanism الذي ينحو إلى عالمية، لا تستند إلى أساس قومي، ولا ترى غير عالم الشركات متعددة الجنسيات.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

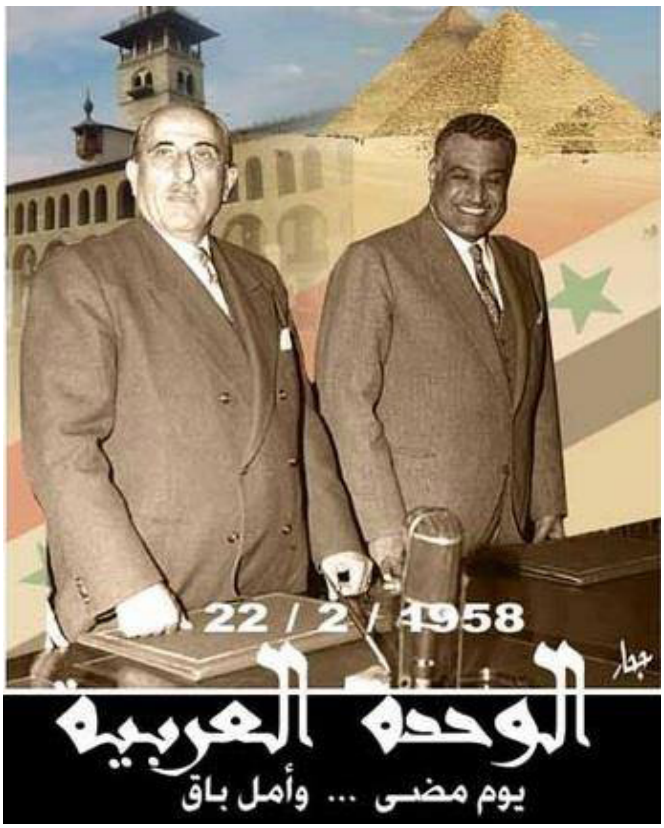

وفي الواقع، أخذ التفتت يذر قرونه إثنياً وطائفياً ومذهبياً ودينياً، وها هو يأخذ أبعاده جهوياً. وأمام ذلك كله، يبدو أن القومية عامة تغيب عن المسرح، وأن القومية العربية في طريقها إلى الزوال؛ وكأن الذين تحدثوا عن موت القومية العربية، كانوا يعرفون ما سيجري (3).

فهل ننفض عقولنا، لنخرج منها القومية العربية؟ وهل سنتحول إلى دول مناطق وطوائف وإثنيات؟

هذا ما يجب أن نناقشه.

- 4 -

لنعترف مجدداً، أننا، ونحن نرى مشروع الوحدة يواجه عقبات تتزايد وتتعقد، نرى وحدة الأقطار العربية الراهنة أمام مشروع تشرذم كبير. ويعود ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

الأول، وجود مخطط دولي، ترعاه حكومة الولايات المتحدة لتفتيت العالم الثالث، وفي القلب منه الوطن العربي. وهذا مخطط، لا يستند إلى تأجيج الصراعات الطائفية والمذهبية والإثنية فحسب، بل يقوم إلى جانب ذلك، على قاعدة: الحكومة المحلية ضد الحكومة القومية. وهذه القاعدة، تستند إلى أن دور الحكومة القومية انتهى، وأن دور الحكومة المحلية هو المطلوب (4).

وبينما تفرز هذه الأطروحة روح التفتيت، بإثارة كل النزعات والمنافسات المحلية، فإنها تضعف الاتجاه إلى قيام الدولة القومية، وتفسخ الأقطار التي تسكنها أكثرية موحدة قومياً ودينياً مثل مصر.

وهذا المخطط الإمبريالي المطروح نظرياً، يجري تطبيقه عملياً، في أنحاء العالم الثالث المختلفة. وها هو يطبق في الاتحاد السوفييتي السابق، ويوغوسلافيا السابقة، وفي أنحاء مختلفة من آسيا وإفريقيا. وهدف هذا المخطط، كما بيّنا أكثر من مرة، هو تهديم بنى الدولة والمجتمع، واستنزاف الطاقات في حروب داخلية، وتحويل دول العالم الثالث إلى دويلات مقزمة، تتسول على أبواب الدول العظمى، وتفتح أبوابها لكل أنواع السلع، بلا حدود، وتصدر الخامات بأرخص الأسعار، حسب برنامج الشركات متعددة الجنسيات (5).

وفي مثل هذه الأجواء، يصبح مطمح بعض القادة الفلسطينيين إقامة دويلة مقزمة في ظل الاحتلال الصهيوني، كما يصبح مطمع قادة البوليساريو إقامة دولة مماثلة في ظل الحماية الدولية، أو أية حماية ممكنة، إسهاماً في تنفيذ هذا المخطط الدولي. وهذا ما عزمت عليه "القوات اللبنانية يوماً"، وما يسعى له بعض القادة الأكراد في شمال العراق، وبعض الطامحين في جنوب العراق. وسنرى مثل هؤلاء قريباً في الجزائر ومصر، وأنحاء الوطن العربي المختلفة. كما نرى أمثال هؤلاء في الهند، وأماكن من العالم.

الثاني، تخلخل النظام القُطري العربي، لأن هذا النظام الذي يحاول أن يجعل حدود الأقطار حدود أمم، وأن يقيم دولة على أساس التنافر مع دول الجوار، وأن يعبئ جماهيره بالولاء للأنظمة لا للأمة ولا للوطن، عجز في كل الميادين عن بناء أساس للدولة، لأنه:

1 – حوّل الدولة، من دولة كفاف، تتلقى بعض المعونات، إلى تبعية اقتصادية كاملة للنظام الرأسمالي العالمي.
2 – حوّل السلطة، من سلطة بدائية، إلى دولة أجهزة القمع، بلا مؤسسات وبلا قانون.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

3 – اتجه إلى سياسة اللعب بالتناقضات، ورعاية المؤسسات التقليدية الموروثة من العهد العثماني والاستعماري، والاعتماد على بعضها دون بعضها الآخر، بدلاً من أن يتجه إلى سياسات الاندماج الاجتماعي التي لم يؤهل أساساً لها.
4 – استخف بالشعب وإرادة الشعب، وأحل مكانها إرادة الفئة الحاكمة.

وأدى ذلك إلى اختلال كبير، بين ما هو محلي وما هو قومي، وما هو وطني وما هو تبعي، وما هو سلطوي وما هو شعبي.

أصبح القُطري ضد القومي، والطائفي ضد القومي-الوطني، وصارت التبعية أساس السياسة والاقتصاد، وصارت السلطة مجرد أداة قمع فاسدة. وبينما نمت طبقات متسلطة في كل أركان الوطن، تدهورت حياة المواطنين إلى درك المهانة والجوع. ورغم أن كل سلطة استقوت على شعبها استقواء لا حدود له، كما هي الحال في كل مكان، كانت هذه السلطة تضعف في عيون شعبها، لأنها تعجز عن حل مشاكل الماء والغذاء والعمل، وتتنازل للأعداء عن الأرض والسيادة القومية، وتنهب الثروات وتبددها، وتختار أفسد الفاسدين، وأعجز العاجزين ليكونوا رجالها وممثليها في كل الميادين.

ولما كان أفق التغيير مستحيلاً، عن الطريق الديموقراطي، وكان القمع يشتد، و"الديموقراطية" تتحول إلى أداة بيد الأنظمة القائمة لاستمرار قمعها ونهبها، فإن ذلك قاد إلى ما يجري في مصر والجزائر، وسيقود إلى تجارب مماثلة في أقطار أخرى. وإذا كنا قد واجهنا العنف القومي أو الماركسي في العقود 1920-1970، فقد بدأنا نشهد العنف الديني والطائفي والمحلي منذ 1970.

وفي ظل هذا كله ظل الخلاص من الطغيان مطلب الجماهير الواسعة وأملها. ولكن دول الأقطار التي لم تتقدم على طريق الوحدة القومية، لأنها ليست مؤهلة لذلك، بحكم طبيعتها وارتباطها، لم تعمل على بناء الدولة الديموقراطية للأسباب عينها، أخذت تسير بسرعة، على طريق التشرذم، أي الانقسام إلى عناصرها الأولية.

وحيث تقوم الدولة بدور من أدوارها المطلوبة، أو حيث امتلكت نوعاً من القوة، فإن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، وحكومات الدول الرأسمالية، تقوم بدور المولد القانوني للتشرذم والانقسام على أسس إثنية حقيقية أو مصطنعة، وطائفية مفتعلة، وعلى أساس مشاريع سلطة بلا أساس، مثل البوليساريو، أو تغذية مطامح بلا مقومات، مثل مشروع الدولة الفلسطينية.

إن النظام القُطري العربي، بعمله الدائب على تعقيد أزماته، وبهربه من الوحدة القومية والدولة المعاصرة، يفرّخ صراعاته وتشرذماته، أو يوّرث قواه التقليدية الذي غذاها ورباها، خشية القومي والجذري والمدني، بقايا سلطاته المتداعية. ولكنه، وهو يحتضر، يفرّخ قوى مقزّمة أكثر شراسةً وتخلفاً ونهباً، وأكثر انسجاماً مع تطلبات "النظام الدولي الجديد".

الثالث، عجز الحركة القومية-الديموقراطية عن أداء دورها. فقد عجزت عن أن تكون قومية، بمعنى أنها عجزت عن أن تمثل إرادة الأمة العربية، وإرادة وحدتها، حتى ولو مثلت بعض النخبة، أو كانت حزباً، أو دولة. لأن تمثيل إرادة الأمة يتطلب تجسيد مصالح الأمة كلها، والتعبير عن مطامحها، وامتلاك القدرة على ذلك نظرياً وعملياً. وهذا يشترط اندماج الثورة القومية بالثورة الديموقراطية نظرياً وعملياً. كما يشترط إقناع جماهير الشعب بخط الحركة القومية وسياساتها.

وإذ كنا قد رأينا إرهاصات ذلك مع جمال عبدالناصر، فإن هذه الإرهاصات ما لبثت أن تبددت، بسبب القصور في برنامج جمال عبدالناصر، وبنية قياداته. ولم نرَ هذه الإرهاصات مع التحدي العراقي للنظام القُطري العربي وللهيمنة الإمبريالية، سنة 1990، إلا أن هذه الإرهاصات التي لم تعش طويلاً، ما لبثت أن تبددت، تاركةً مرارةً كبيرة وحلماً كبيراً لم يتحقق.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

ونحن الآن، بلا حركة قومية شعبية وشاملة، وبلا حركة ديموقراطية، عميقة وشعبية، وبلا قوة مواجهة كبيرة. إن عجز الحركة القومية هذا، ساعد على تفاقم الدور الإمبريالي، وسمح باستعادة القوى التقليدية (محلية وطائفية وإثنية) من تخلخل النظام القُطري، لأن النظام القُطري أعدها لهذا الدور، ولأن القوى الإمبريالية الدولية، ساعدت في ذلك مساعدةً كبرى، فهل يعني ذلك كله، من تفاقم الخطر الإمبريالي إلى تفاقم مشاكل النظام القُطري، ومن ازدياد مخاطر التشرذم إلى عجز الحركة القومية، أن المستقبل صار ملك الإمبريالية والتشرذم والهزيمة...؟! وهل نحن في مرحلة موت الأمة العربية، لا في مرحلة انبعاثها، كما نعى النعاة؟

- 5 -

إننا لسنا من مرددي صرخات النعاة. ورغم أننا نرى المخاطر تتراكم، نتيجة الأسباب التي ذكرنا، فإننا نرى أن هناك عوامل تدفع باتجاه الوحدة القومية، رغم كل عوامل الفُرقة والتشرذم. ويمكن إيجاز هذه العوامل بما يلي:

أولاً، أن التحدي الإمبريالي الذي أخذ يهدد وجود الأمة، منذ بدايات القرن التاسع عشر، ما زال يهدد وجودها. وهو اليوم، ومنذ الهجوم الإمبريالي الدولي على العراق، والحصار على ليبيا والسودان، يزيد المخاطر على وجود الأمة، ويعقد سبيل وحدتها وتقدمها.

إن هذا التحدي المصيري، لا يمكن أن يمر بدون مواجهة. وإذا كانت المواجهة في الماضي قد فشلت أو قصرت، رغم مستوى التضحيات وحجمها، فإن دروس الفشل الماضي، لا بد أن تعلمنا كيف نواجه الآن وفي المستقبل. وهناك ما يؤكد أننا نتعلم، ولو ببطء، وأن مقاومتنا تتطور. والذي يدرس تاريخ المقاومة العربية من أحمد عرابي حتى الآن، يلمس مظاهر التطور فيها. وهذا يعني أن مخطط سايكس-بيكو واجهته ثورات وانتفاضات وحركات سياسية. ورغم أنها لم تحبطه، فإنها كانت دروساً لمواجهة المخطط الجديد. هذا يعني أن المخطط الجديد الذي يعرّض كل وجود الأمة للخطر، لا بد أن يواجه مقاومة أشد وأوسع وأكثر جدارة بالنصر.

ويساعد على تفجر إرادة التحدي الشعبي بروز استعدادات الاستسلام لدى القيادات والقوى الحاكمة، كما برز في اتفاق غزة-أريحا وما رافق ذلك من انكشاف الاستعدادات الاستسلامية للنظام القطري العربي.

نحن، إذن، لسنا أمام عدوان إمبريالي دولي واستعداد استسلامي لدى قيادات وأنظمة فحسب، بل نحن أيضاً أمام إرادة تحدٍ عربي شعبي، أثبتت دائماً، وفي مثل هذه الحالات، استعداداً للمواجهة، كما في الجزائر والمغرب وتونس وليبيا ومصر والسودان والجزيرة العربية والعراق وسورية وفلسطين ولبنان خلال أكثر من مائة عام، وستثبت بما اكتسبته من خبرات، وبما تستشعره من خطورة التحديات، أنها ستتطور بما يجعلها قادرة على تحقيق أهدافها.

ثانياً، إن تحديات بناء المجتمع المدني، مثل نقص الغذاء والماء، وتناقص فرص العمل، والثورة السكانية المتدفقة، تفرض تجاوز المحلي والقُطري، لأن القُطري والمحلي لا يملكان حلاً. وإذا كانت الثورة السكانية في الجزيرة، ونقص الماء والغذاء، قد قاد إلى عدة هجرات، قبل الإسلام أدت إلى قيام دولٍ كبرى، فإن الفائض السكاني في كل أنحاء الوطن سيدفع باتجاه الوحدة، لأن فيها حلولاً لا تملك مثلها حدود الأقطار، ولا تعطي مثلها التجزئة الجديدة.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

إن هذا التحدي الكبير، تحدي الكثرة السكانية والماء والغذاء والعمل، هو الذي دفع دوائر التخطيط السياسي والعسكري في الولايات المتحدة، إلى البحث عن حلول لمواجهة هذه الإشكالات. وهو الذي قاد هذه الدوائر في السلطة الأمريكية، وفي مؤسسات كالبنك الدولي، إلى دق ناقوس الخطر، واقتراح حلول تبدأ بدراسة سبل حل مشاكل التزايد السكاني السريع، وتنتهي باستخدام سبيل المجاعات والحروب.

وترى هذه الدراسات أن الكثرة السكانية المتزايدة، ستقود حتماً إلى أمرين:

الأول، إحداث تحول في الجغرافيا السياسية العالمية، لمصلحة الدول ذات التزايد السكاني العالمي، وعلى حساب الدول المصنّعة المتناقصة السكان.

الثاني، إحداث تحول عميق في بنية المجتمعات ذات النمو السكاني العالي، يعيد بناء الدولة والمجتمع واستخدام الموارد لمصلحة الأكثرية العاملة والجائعة.

وهو، ما يهدد، في نظر هؤلاء المخططين، هيمنة الدول الإمبريالية، لا في البلدان التابعة فحسب، بل بلدانها عينها، وما يهدد الفئات الحاكمة التابعة في البلدان المتخلفة. ولذلك لا بد من اختزال طاقة هذه الجماهير المتزايدة بالمجاعات والحروب، وإعادة تقسيم الدول الموحدة كالهند والصين والبرازيل، ومنع الأمم التي فُرضت عليها التجزئة من الوحدة، وبناء وحدات اقتصادية غير قومية، تتبع محاور رأس المال العالمي، مثل هونغ كونغ وسنغافورة. إن لهذا العامل دوره في استنهاض قوى المواجهة، وفي تطور وعي شعبي واسع، ينسجم مع مصالح أوسع الجماهير، بمقدار ما تخافه القوى المعادية.

الثالث، أن المجتمع العربي يعيش تحولات بنيوية نوعية، في ميادين أبرزها:

أ – "العولمة" التي تعم البسيطة، والتي تخترق النسيج الاجتماعي في كل مكان؛ رغم أنها تعكس جوانب سلبية في ميادين عدة كالاستلاب والاستهلاك، فإنها تنقل الأطراف من أطراف معزولة إلى أطراف مرتبطة بالتطور العلمي، بكل ما فيه، من ثقافات وخبرات متعددة ومتنوعة.
ب – التطور النوعي في التربية والثقافة والتعليم، رغم اضطراب برامج التربية والتعليم وتخلف الممارسات التربوية، وهيمنة أشكال من الثقافة المبتذلة والدعاوية الرخيصة على حياتنا.
ج – ازدياد عدد سكان المدن في كل أنحاء الوطن العربي، بما يجعل نسبتهم العامة حوالي 50%، وما يرافق ذلك من تطور اجتماعي.
د – تطور الاتصال بين الأقطار العربية، بسبب تطور وسائل الاتصال (إذاعة، تلفزيون، هاتف) وتطور وسائل المواصلات، وخاصة الطائرة والسيارة والباخرة، مما قاد إلى التفاعل السياسي والاجتماعي والثقافي، رغم كل العوائق. وقد قاد ذلك إلى زيادة التعارف، وانتقال الخبرات، وانتقال لغة الخطاب السياسي والثقافي والوجداني إلى مرحلة جديدة من التقارب والتشابه، بعد أن كانت اللهجات تنغلق وتتباعد.

وفي ذلك كله ما يساعد على تحقيق الوحدة، ويؤسس لحالة وحدوية، في ظل حرص السياسات القُطرية على تأكيد وجودها.
فهل يمكن أن نعتبر أن هذه العوامل، وغيرها من العوامل المساعدة، يمكن أن تكون وحدها كافية؟

- 6 -

إن الإجابة على هذا السؤال، تتطلب أن نؤكد أولاً أن الذاتي ابن الموضوعي، وأن الذاتي الذي لا يكون الموضوعي منطلَقه، يتحول إلى "هلوسة"، أو أغنية ذاتية، قد تكون مؤثرة، ولكنها لا تستطيع أن تتحول إلى قوة تغيير.

وكل موضوعي لذلك يلد الذاتي الخاص به.

ولكن هناك فرقاً بين ذاتي وذاتي. فهناك ذاتي قاصر ومشوش، وهناك ذاتي محدد وواضح، وهناك ذاتي محدد نظرياً، لا يملك قواه، وهناك ذاتي محدد نظرياً ويملك قواه. وكان عامل الوحدة العربية، منذ نهاية القرن الماضي غير محدد نظرياً، ولا يملك قواه، ولذلك لم تتحقق الوحدة. ومن المؤكد أن ذلك كانت له أسبابه الكبيرة والعميقة. ومن ذلك:

1 – طبيعة القوى المعادية، أي الإمبريالية أساساً، وتفوقها النظري والعلمي تفوقاً بلا حدود.
2 – طبيعة النظام العربي القائم على خريطة التقسيم الإمبريالي، والمؤسس على التبعية.
3 – طبيعة النخب العربية القومية التي تكن تملك بحكم تخلف بنى المجتمع العربي، والأمية السائدة في صفوف الشعب، والتشتت بين السلفي والمعاصر، والديني والدنيوي، وبين المحافظة والإصلاح والتقدم، والعلم والخرافة، والقانِعة بدور على هامش الأنظمة والطوائف والأحزاب والجمعيات والنقابات.

ولذلك، فإن الوحدة التي أكد الجمهور العربي الواسع التزامه بها، منذ ما يسمى عصر النهضة، حيث أتيح له أن يعبر عن رأيه، بحاجة إلى أدواتها النظرية والعملية.

فعلى الصعيد النظري، إن العربي بحاجة إلى ثلاثة أمور:

الأول، فكر قومي جديد يطرح كل قضايا القومية، وكل إشكالاتها، ويقدم للعربي فكراً قومياً يتجاوز ما طرحه الكتّاب القوميون منذ 1875، وما طرحته الأحزاب القومية. ولنعترف أن الفكر القومي، خلال المرحلة 1875-1996، لم يستطع أن يؤدي مهماته، لأنه تعاطى مع القضايا القومية تعاطياً سياسياً عابراً في معظم الأحيان. ومع أن هناك العديد من الكتاب القوميين، إلا أن الذين نستطيع أن نعتبرهم منظّرين خلال كل هذه المرحلة الطويلة لا يتعدون أصابع اليد، وأبرزهم ساطع الحصري ومحمد عزة دروزة والدكتور نديم البيطار. ولذلك، فنحن الآن بحاجة إلى ثورة في الفكر القومي، تحلل قضاياه، وتدرس إشكالياته، وتعمّق دراسة أطروحاته، كما لم يحدث من قبل.

وهذا يتطلب:

أ – إعداد مراكز أبحاث ودراسات متخصصة، لتقوم بدورها في هذا المجال، مثل مركز دراسات الوحدة العربية، والمجلس القومي للثقافة العربية، تتعاون وتتنافس، تغني الدراسات والأبحاث في كل الميادين.
ب – العمل على تحويل التربية والتعليم إلى خط قومي، رغم الصعوبات التي يفرضها النظام القُطري، وتحويل المدارس والجامعات إلى مراكز وعي قومي.
ج – العمل على بناء مراكز للموسيقى القومية، والأغنية القومية، وكل ما يغذي الوجدان القومي.
د – العمل على تكوين مدارس مبدعة في الشعر القومي خاصة، والأدب القومي عامة.

إننا بحاجة إلى دور الثقافة والوعي والفكر والموسيقى والشعر في إعادة الروح إلى حركتنا القومية، وفي إغناء وجداننا، وتكوين قناعاتنا الحياتية والسياسية. فهذا ما فعلته الحركات القومية في القرون الماضية، وهي تعيد بناء الوجود القومي في أوروبا وآسيا. وقد زادت حاجتنا اليوم إلى ذلك كله، بسبب زيادة مخاطر الهيمنة والاستلاب، وتفاقم إشكالات الكوسموبوليتية من جهة، والتشرذم من جهةٍ أخرى.

وعلى الصعيد العملي، نحن بحاجة إلى أدوات سياسية قادرة على التخطيط والتنظيم والقيادة، وقد تضم هذه الأدوات حزباً أو أحزاباً، وحركة أو حركات، وجبهة واسعة إلخ... والمهم رغم اختلاف الأسماء، أن تمثل جبهة شعبية واسعة قومية وديموقراطية، فقد أثبتت تجارب الوطن العربي أن نجاح الجبهة أو الحركة الواسعة يرجح على نجاح الحزب النخبوي. وإذا كنا خلال العقود الماضية ننجح عبر الحزب أو الحركة، فإن علينا أن ندرس الأسباب، وأن نكتشف الأسلوب المقبول، شعبياً، والقادر على تحقيق المهمات المطروحة، في مثل هذه الظروف المعقدة.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

ويمكن البدء على المحاور التالية:

أولاً، بناء جبهة قومية متحدة في كل قُطر، وجبهة قومية متحدة على الصعيد القومي، على أساس برنامج قومي ديموقراطي شعبي من الأحزاب السياسية القومية، ومن جماهير الشعب.
ثانياً، البدء بتأسيس حركة شعبية واسعة قومية وديموقراطية، من الجماهير مباشرة، وبالطرق المناسبة.
ثالثاً، بناء رأي عام قومي عربي في كل أنحاء الوطن العربي، من خلال عمل واسع شامل، تقوم به حركة قومية شعبية، تمارس النشاط التعبوي في كل ميادين الحياة.
رابعاً، بناء قوى الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فيما يتعدى الحزب والحركة إلخ...

وبذلك نبني القوى النظرية والعملية، ونعبئ جماهير الشعب ونحشدها، ونتجاوز الهشاشة النظرية والعملية التي عرفناها، خلال أكثر من مائة عام. وبناء قوى الوحدة النظرية والعملية هو الأساس في تحقيقها، مثل أي مشروع، ولقد عجزنا في الماضي، لا لوجود قوى معادية فحسب، بل لقصورنا وفشلنا علمياً ونظرياً. ورغم زيادة القوى المعادية قوةً، فإن كل العوامل التي أشرت إليها، والتي أعتبِرُها إيجابية، إذا ما اقترنت بوضوح الفكر وحماسة الوجدان، والقدرة على التنظيم والعمل والبناء والمواجهة.

أستخلص من ذلك كله ما يلي:

أولاً، أن قوى العدوان والشرذمة، بمقدار ما تخضِع قوى عربية، تستنهض قوى. وكان التحدي المصيري، في كل تاريخ الأمة يستنهض قوى كبرى، كما هي حال كل أمة في العالم. وبمقدار ما يكون الخنوع الداخلي، يُطلق ذلك قوى مواجهة هائلة.

ثانياً، أن عوامل الوحدة تتراكم، تحت رماد التجزئة والشرذمة والهزيمة.

ثالثاً، أن النهوض يحتاج إلى تطور نوعي في العامل الذاتي، أي قوى المواجهة المؤهلة نظرياً وعملياً. والواقع العربي الراهن، بكل تراكماته وتشابكاته، يقدم مكونات هذا التطور النوعي.

ولذلك، فإن القوى القومية النوعية مطالبة بأن تبدأ عملها النوعي، لإعادة بناء الحركة القومية، وبدء نضال قومي جديد شعبي وشامل وديموقراطي لتحقيق أهداف الأمة.

المراجع:

(1) Kenichi Ohmae, The Rise of the Region State, Foreign Affairs, Spring 1993, pp (78 – 87).
(2) ناجي علوش: القومية العربية والإسلام السياسي، مجلة "اليسار"، العدد الخامس، القاهرة.
(3) ناجي علوش: الوحدة العربية: العوائق والمشكلات. المجلس القومي للثقافة العربية، 1991.
(4) تحدث أكثر من كاتب أمريكي عن "موت الأمة العربية"، وكان من هؤلاء فؤاد عجمي، الأمريكي العربي الأصل، ويمكن مراجعة كتابه:

Fouad Ajami, The Arab Predicament, Cambridge University Press, 1981.

كذلك يراجع حول "موت الأمة العربية":

William R. Brown, The Dying Arab Nation, Foreign Policy, No. 54, Spring 1989.

حول الشركات متعددة الجنسيات يراجع:
د. محمد السيد سعيد، الشركات عابرة القوميات ومستقبل الظاهرة القومية، سلسلة عالم المعرفة، رقم 107، 1986، خاصة الصفحة رقم 156.
أيضاً يراجع حول تفكيك الدولة القومية:

Kenichi Ohmae, The End of the Nation-State, The Free Press, 1995.

(5) ناجي علوش: الوطن العربي، الجغرافيا الطبيعية والبشرية، مركز دراسات الوحدة العربية، 1986.

لائحة القومي العربي

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

التاريخ والحاضر يشهدان: قدَر المقاومة الانتصار

كريمة الروبي

الترويج لفكرة هزيمة كل من يقاوم من أجل إعلاء المبادئ الانسانية هو أمر مقصود وممنهج من قبل من يدركون جيداً أن تزييف وعي الجماهير وإحباطهم من فكرة المقاومة هي أولى خطوات الهزيمة الحقيقة حتى لا يخرج من بينهم من يحمل الراية ويدافع عن حقوقهم المسلوبة.

ولكن الحقيقة التي يجب أن يدركها الجميع أن المقاومة لم تنهزم قطّ على مدار التاريخ وحتى وقتنا هذا، وما يتصوره البعض هزيمة هو في الحقيقة انتصار حتى وإن بدا غير ذلك في حينه. فلا يمكن لأحد أن يتحدث عن هزيمة السيد المسيح والذي ظن أعداؤه أنهم انتصروا عليه ووأدوا دعوته ولكن الحقيقة أن المسيح انتصر وانتشرت دعوته وانهزم أعداؤه حتى وإن ظنوا أنهم منتصرون حينها، وهل يمكن أن نعتقد بأن الإمام الحسين قد هُزم في كربلاء؟ ألم ينتصر الدم على السيف وبقيت مبادئ الحسين وسيرته وكلماته تنير الطريق لكل حالم بالحرية والكرامة؟ حتى حين تصور صحفي مصري أنه يمكن أن يسيء لسيرة الإمام الحسين بعد أربعة عشر قرناً على استشهاده، ناله من النقد ما جعله يتراجع عن مقالته ويعتذر، مما يؤكد أن مبادئ الحسين هي الباقية، وأنه رغم استشهاده قد انتصر وأصبحت صيحته الشهيرة "هيهات منا الذلة" هي دستور كل مقاوم.

وقد يظن البعض أن أحمد عرابي قد هُزم وأن الخديوي توفيق والاحتلال الإنجليزي قد انتصرا عليه، ولكن ألم تكن ثورة يوليو 1952 امتداداً وانتصاراً للثورة العرابية وتتويجاً لكفاح الشعب المصري ضد الاحتلال والاستغلال؟

إن امتلاء صفحات التواصل الاجتماعي بأفكار تروج لهزيمة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ليس صدفةً أو من عمل هواة، بل هو جزء من الترويج لثقافة الهزيمة، هزيمة المقاومة في أي مكان وزمان، والتي تؤدي بدورها للشعور بالدونية وفقدان الأمل في التحرر والاستقلال، ورغم أن تلك الصفحات تملأ الفضاء الإلكتروني بالأكاذيب وتزييف التاريخ وتشويه سيرة الرجل، إلا أن حضور جمال عبد الناصر اللافت للانتباه بعد ما يقرب من نصف قرن على رحيله، يؤكد انتصاره وانتصار أفكاره ومبادئه وصمودها أمام هذا التيار الجارف، وأنه ما زال حياً يأبى الموت، وحاضراً دائماً يأبى الرحيل. فكيف صدّق هؤلاء الحمقى أن شخصاً مهزوماً يظل حياً هكذا في وجدان الجماهير وتتوارث سيرته ومبادءه أجيالٌ بعد أخرى؟!.

لسنا هنا بصدد الرد على أكاذيبهم أو دحض افتراءاتهم، ولكنها محاولة لكشف عقليات محدودة تصدّق وتروج لفكرة هزيمة رجل دق آخر مسمار في نعش الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، واستطاع أن يفرض إرادته على دول عظمى، فانتصر على العدوان الثلاثي عام 1956 بعد أن أمم قناة السويس متحدياً الجميع، وبنى السد العالي وأنشأ آلاف المصانع والمزارع والمدارس واهتم بالفنون والآداب وأحدث نهضة كبرى في جميع المجالات، والأهم أن هذه النهضة كانت لأبناء البلد لا للمستعمرين وتجار الأوطان، وكذلك مساندة كل أحرار العالم في معاركهم من أجل الاستقلال، حتى في هزيمته التي يتغنون بها ليل نهار هو حتماً منتصر، فالهزيمة هي الاستسلام لإرادة المعتدي ولكن ما حدث هو رفض الهزيمة والاستسلام بل وخوض معارك شرف وكرامة ضد العدو، كما في حرب الاستنزاف التي كبدت العدو

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

الصهيوني حوالي 1500 قتيل، والاستعداد لمعركة تحرير كبرى لم يحالفه العمر لخوضها، فهل مثل هذا يمكن أن يعدُ قائداً مهزوماً؟ هل هُزم وانتهى دوره واختفت سيرته؟ أم انتصرت مقاومته وأصبحت منارة يسترشد بها كل مقاوم حر في العالم؟ لقد كان الزعيم الراحل ذا بصيرةٍ نافذةٍ وقد تنبأ بهذه الحرب الدائرة الآن على سيرته وإنجازاته ومبادئه حين قال: "لن يغفر لي الأمريكيون ما فعلته معهم .. حياً أو ميتاً".

من كان يتصور أن المقاومة الفيتنامية أو العراقية سوف تهزم الولايات المتحدة؟ كذلك إن بقاء المقاومة في لبنان وفلسطين رغم كل الضغوط وحملات التشويه ضدها لهو دليلٌ على انتصارها، وما فعله رجال المقاومة وشعبها في لبنان وفي فلسطين مرّغ أنف العدو الذي كلما تصور أنه يمتلك من القوة ما تمكنه من الانتصار، أعطته المقاومة درساً لا ينساه، وأعطتنا معه درساً في حتمية انتصار المقاومة في معاركها الحالية مثلما أعطانا التاريخ درساً في حتمية انتصار المقاومة في معاركها المؤجلة.

إن الذين يرون هزيمة المقاومة ينظرون تحت أقدامهم، ولا يرون الصورة كاملة، بل تحكمهم مصالحهم الذاتية فيبحثون عن الطرف الأقوى ليحتموا به دون الاهتمام بمصير المعركة تاريخياً: هل سيظل الحال هكذا، أم ستأتي أجيال تغير المعادلة؟ فمن يسعى لتأمين مصالحه الآنية اليوم لا يشغل تفكيره بما ستؤول إليه الأوضاع لاحقاً.

إن المقاومة فكرة، والهزيمة الحقيقية هي موت الفكرة لا الهزيمة في معركة، فالصراع بين الحق والباطل عبارة عن معارك متصلة، هزيمة في معركة وانتصار في أخرى، حتى يأتي النصر الكامل كطفرةٍ نوعيةٍ نتيجة مراكمة سلسلة من الانتصارات الصغيرة ما دام أهل الحق مواظبين في الدفاع عنه.

المشروع القومي كذلك تعرض لنكساتٍ وهزائم، كما أنه حقق الكثير من الإنجازات والانتصارات، وهو لا يعيش أفضل حالاته اليوم، لكنه يبقى مشروع المستقبل العربي الذي لا مشروع غيره، فنحن لا نتخلى عنه في الظرف الصعب، بل نزداد تمسكاً به، ويزداد أملنا به توهجاً كلما اشتدت حلكة ظلام الردة، فهو رافعة نهوضنا وتحررنا ووحدتنا، وإذا كانت المقاومة رهاننا الأكبر كحالة دفاعية عندما يتراجع المشروع القومي، فإن المشروع القومي هو حالة الهجوم التي لا بد لها أن تلي الدفاع، وحتى يحين موعد المد القومي من جديد، لا بد ممن يعلي الشعلة، ويبقي الفكرة حية، حتى في أصعب اللحظات.

حركة التحرير الشعبية العربية (1978-1992): صفحة مطوية من النضال القومي المعاصر

إبراهيم علوش

حركة التحرير الشعبية العربية تنظيم قومي يساري تم الإعلان عن تأسيسه عام 1978، وعن حله عام 1992، كان يدعو للثورة القومية الديموقراطية الشعبية في الوطن العربي كمقدمة للاشتراكية، وكان مؤسسه وأمينه العام المفكر والمناضل القومي العروبي ناجي علوش.

فكرياً، شكلت الحركة امتداداً للتراث القومي اليساري الذي بدأ بالتبلور على هامش التيار القومي العروبي في الستينيات والسبعينيات، في البداية من خلال ياسين الحافظ وإلياس مرقص، ومن ثم من خلال بلورة أطروحات نظرية محددة بقالب قومي عروبي ومنهجية ماركسية مستقلة مؤصلة عربياً، وقد عبرت أدبيات حركة التحرير الشعبية العربية عن تلك المفاهيم والطروحات، لا سيما برنامجها السياسي المنشور عام 1983، كما عبرت عنها مجموعة من كتب ناجي علوش في تلك الفترة مثل "عودة إلى موضوعات الثورة العربية"، و"حوار حول قضايا الثورة العربية"، و"تركيب الطبقات والصراع الطبقي في الوطن العربي"، والكتب الثلاثة متوفرة الكترونياً، مع غيرها، على الرابط التالي:
http://www.freearabvoice.org/?cat=14

أما كتاب "موضوعات الثورة العربية" الذي نُشر وشكل مادة للحوار بين كوادر حركة التحرير الشعبية العربية قبل الإعلان عن تأسيسها بأكثر من عامين، فلا يعتبر أحد أدبيات الحركة، بل كان محركاً للنقاش وبلورة المفاهيم في مرحلة

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

محددة فحسب، وإذا كان حاقدٌ صغيرٌ (لا يزال يحاول التنفيس عن عقد نقصه المتراكمة بالتهجم على ناجي علوش وحركة التحرير الشعبية العربية) قد حاول أن يستغل كون أحد كُتّاب "موضوعات الثورة العربية" قد انتقل إلى موقع القوى الانعزالية في خضم الحرب الأهلية في لبنان، هذه القوى التي كان "عزلها" أحد مواضيع الخلاف مع ناجي علوش الذي كان مثل العديد من القوى والشخصيات الوطنية اللبنانية والفلسطينية يتخذ موقف عزلها سياسياً، فإن حركة التحرير الشعبية العربية تجاوزت ذلك الكاتب وغيره ممن نقلوا البندقية من كتفٍ إلى كتف قبل تأسيسها بأمدٍ طويل، كما أنها تجاوزت كتاب "موضوعات الثورة العربية" ذاته، ولم تعتبره أحد أدبياتها، أما الذين لا يزالون يهاجمون ناجي علوش وتجربة حركة التحرير الشعبية العربية من موقع الدفاع عن قيادة فتح، وياسر عرفات تحديداً، فهم الذين بقوا بلا غطاء أخلاقي بعدما انكشفت لعبة بيع القضية الفلسطينية على الملأ منذ ما قبل اتفاقية أوسلو، وهو الأمر الذي كان ناجي علوش وغيره يحذرون منه منذ بداية السبعينيات، ويُذكر أنه كان أحد ثلاثة فقط في المجلس الوطني الفلسطيني عام 1974 ممن رفضوا "برنامج النقاط العشر" (أحد الثلاثة اعتبر أن برنامج النقاط العشر "متشددٌ أكثر من اللزوم"!)، وهو البرنامج التسووي الذي مهد لكل حالة الانحراف في الساحة الفلسطينية وصولاً للتنسيق الأمني مع العدو الصهيوني اليوم (المستمر بالرغم من إعلان السلطة الفلسطينية مؤخراً وقف العمل بالاتفاقيات مع العدو الصهيوني).

سياسياً، تبنت حركة التحرير الشعبية العربية مواقف جذرية واضحة بالنسبة للعديد من القضايا العربية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، وقد برز هنا بالأخص موقفها من موضوعة "التسوية" مع العدو الصهيوني بكافة أشكالها، ومن القوى والشخصيات المنخرطة في التنظير للتسوية مع الكيان الصهيوني أو الدفاع عنها. وقد شكل مثلُ ذلك الموقف، في مرحلة تراجع المد القومي، عنصرَ صدامٍ مع قيادة حركة فتح ومع العديد من الأنظمة العربية وامتداداتها، وحتى مع بعض اليسار العربي والفلسطيني والفتحاوي.

اتخذت الحركة، فضلاً عن ذلك، مواقف غلب عليها التوجه القومي والوحدوي، في زمنٍ بات فيه التركيز على "الخصوصيات والبرامج القُطرية" عنوان العمل السياسي العربي الرسمي والمُعارض، وهو ما زاد من احتكاك الحركة مع عدد لا بأس به من الكيانات السياسية العربية، فقد مثّلت الحركة حالة فارقة سعت لاستعادة واستنهاض المد القومي من خلال حراك تنظيمي-شعبي-فكري ينبثق من الشارع العربي، ومارست عملاً سياسياً-تنظيمياً دؤوباً عابراً للأقطار العربية وبين بعض التجمعات الطلابية العربية خارج الوطن العربي من أجل بناء تلك الأداة السياسية-التنظيمية بالذات، على مدى خمسة عشر عاماً تقريباً، غالباً عبر العمل السري.

فشلت تلك المحاولة بالطبع التي بذَل فيها عددٌ لا بأس به من المناضلين والمناضلات زهرة شبابهم، ربما لأنها كانت تجربة جاءت قبل، أو بعد، لحظتها التاريخية بكثير، فلا هي جاءت في زمن المد القومي، ولا هي جاءت بعد أن جرّب شعبنا العربي وأدرك ما يعنيه تراجع المد القومي، بل جاءت في مرحلة انحسار مصر وتغول البترودولار على المشهد العربي من جهة، ومرحلة انطلاق "الإسلام السياسي"، لا سيما بعد الثورة الإيرانية عام 1979، من جهةٍ أخرى.

وإذا كانت "جبهة الصمود والتصدي"، التي كانت تضم سورية والعراق وليبيا والجزائر واليمن الجنوبي، قد شكلت كابحاً لفترةٍ ما على التغول البترودولاري على المشهد العربي بعد كارثة كامب ديفيد، وإذا كان مجرد وجود الاتحاد السوفييتي قد شكل كابحاً على التغول الأمريكي في العالم، فإن مرحلة العدوان على العراق وحصاره، وانهيار الاتحاد

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

السوفييتي، وبدء مفاوضات مدريد في بداية التسعينيات كانت تؤشر على نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة في السياسة العربية كان لا بد معها من إعادة النظر بالتوجه العام للعمل الثوري باتجاهات دفاعية ثقافية-فكرية-جماهيرية، أكثر منها نخبوية أو سرية لم تؤتِ أكلها، وهكذا جاء قرار حلّ حركة التحرير الشعبية العربية عام 1992، وهو القرار الذي لم يكن موضعَ إجماعٍ في التنظيم، إذ استمر فرع الحركة في الساحة الليبية مثلاً يعمل باسم حركة التحرير الشعبية العربية لسنواتٍ طوال بعد إعلان حلها، ولكن الجسم التنظيمي الأساسي في الحركة كان قد انحل.

تنظيمياً، تشكلت حركة التحرير الشعبية العربية من أربع نَوَيات رئيسية نشأت حولها شبكة علاقات سياسية ونقابية وتحالفية، وهذه النويات هي:

1) جزء مهم من التنظيم السياسي لفتح-المجلس الثوري، تمييزاً له عن عناصر فتح-المجلس الثوري المرتبطين بالمكاتب والقواعد في إقليم العراق، وذلك بعد الافتراق عن أبي نضال بسبب نهج الاغتيالات الفردية في الساحة الفلسطينية ونزوعه لتدمير التنظيم بدلاً من بنائه وبسبب قراراته الفردية، بعد علاقة مع أبي نضال لم تكملْ عاماً كاملاً، وقد تواجد أعضاء الحركة الخارجون من رحم تلك التجربة في العراق والكويت والأردن وفي عدد من الساحات الطلابية خارج الوطن العربي، وكان هؤلاء من الفلسطينيين.

2) جزء من التنظيم السياسي الذي بدأت محاولات تشكيله في كنف حركة فتح في لبنان، وكان ناجي علوش آنذاك عضواً في المجلس الثوري في حركة فتح، وعضواً في المجلس الوطني الفلسطيني، وقد بدأت محاولات تشكيل تنظيم يساري التوجه مناهض لمشاريع التسوية مع العدو الصهيوني في كنف حركة فتح منذ عام 1972 تقريباً، وقد استلم منير شفيق أمانة سر ذلك التنظيم الذي انبثقت منه تجربة السرية ثم الكتيبة الطلابية فيما بعد، وبعد بروز خلافات حادة حول عدد من القضايا الفكرية والسياسية مع منير شفيق حول الموقف من القيادة الفلسطينية والنظامين المصري والسعودي والصراع الصيني-السوفييتي والحرب الأهلية اللبنانية وغيرها من القضايا، حدث فُراق في أواسط السبعينيات ذهب فيه أغلب ذلك التنظيم مع منير شفيق، وبدأ ناجي علوش العمل على البناء التنظيمي في ظل حركة فتح من جديد، وقد شكلت تلك الخميرة التنظيمية الجديدة رافداً ثانياً لحركة التحرير الشعبية العربية عندما تم الإعلان عنها عام 1978، وكانت من الفلسطينيين واللبنانيين.

3) عدد من كوادر منظمة العمل الشيوعي في لبنان ممن احتذبتهم المقاومة الفلسطينية فتركوا منظمتهم وانضموا إلى صفوف فتح بنية ممارسة العمل المقاوم والمسلح، وقد حمل هؤلاء معهم تجربة العمل الحزبي اللينيني والتثقيف الأيديولوجي المكثف إلى صفوف حركة التحرير الشعبية العربية فيما بعد، ولعبوا دوراً فعالاً في تكوين بنية تنظيمية حديدية لا سيما في ظروف العمل السري المعقدة في ظل حملات قمع وتنكيل متواصلة أشرفت عليها قيادة حركة فتح، لا سيما صلاح خلف (أبو أياد)، ضد حركة التحرير الشعبية العربية في الساحة اللبنانية.

4) مجموعة تونسية تشرفت بالتعرف على بعض أعضائها في سورية، وكانت تتألف بحسب علمي من بضع عشرات؛ وفي لحظةٍ ما، كان لحركة التحرير الشعبية العربية 25 معتقلاً في سجون بورقيبة ثم بن علي في تونس.

البنية التنظيمية الأساسية لحركة التحرير الشعبية العربية إذن كانت فلسطينية ولبنانية وتونسية، ولكن كانت حولها شبكة علاقات واسعة في عدد من البلدان العربية، وكان بعض كوادرها يعملون فوق الأرض، بحكم انكشافهم، وبحكم ضرورة تمثيل الحركة أمام جهات مختلفة، وبعضهم الآخر تحت الأرض، وبعضهم في منطقة رمادية ما بين بين،

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

وكانت للحركة نشرة تنظيمية داخلية في فترةٍ ما، كما أنها ظلت تُصدِر حتى إعلان حلها مجلة دورية ورقية اسمها "الانطلاقة" كان نقلها بين الأقطار العربية، في مرحلة ما قبل الإنترنت، عملاً محفوفاً بالمخاطر في الكثير من الأحيان، وكان بعض كوادر الحركة ينشطون نقابياً أو جماهيرياً عبر اتحادات طلبة أو جمعيات أهلية أو نوادٍ ثقافية أو غيرها بصفتهم الحركية أو بصفة "مستقلين"، بحسب مقتضيات الوضع الأمني في كل حالة.

كان الجسم الأساسي للحركة في لبنان لبنانياً، وكذلك تشكلت قيادة ساحة لبنان من سبعة أشخاص في البداية، كان ستةٌ منهم لبنانيين، وكان شاباً لبنانياً اسمه "عادل" أمين سر الساحة اللبنانية (وكان أيضاً أمين سر التنظيم الذي تشكل في فتح في أواسط السبعينيات بعد الفُراق مع منير شفيق)، وقد انتهى عادل في سجون الأمن الموحد (التابع لأبي إياد) في لبنان، وكان قد اعتقل في ربيع عام 1978 في الفترة ذاتها التي أعدَم فيها ياسر عرفات بطلي الصمود في مخيم تل الزعتر أبا أحمد وأبا عماد، والتي تم فيها الانقضاض من الخلف على 4 قواعد في جنوب لبنان أعدت لقتال العدو الصهيوني، بالإضافة لبضع عشرات تم اعتقالهم بسبب ارتباطهم بشكلٍ أو بآخر بناجي علوش.

قضى عادل أكثر من عام ونيف في السجن، ثم خرج فجأة ليلاقيه أعضاء التنظيم في الساحة اللبنانية لقاء الأبطال، فبدأ يدعو للقاءات كادرية شبه علنية في ظروف قمع صعبة من دون أن يعترضه أحد، وراح يتصل بالخلايا التي يعرف عنها بشكل فردي، ونشط لإحداث هزة في البنية التنظيمية في الساحة اللبنانية بالنظر للهالة النضالية السامية التي حظي بها، وكان ناجي علوش خلالها متشرداً في البلدان وفي رقبته حكما إعدام، أحدهما من ياسر عرفات، والآخر من صبري البنا (أبو نضال).

المهم تبين أن المناضل الكبير عادل تساقط في السجن وخرج بناءً على صفقة مع أبي إياد، ومن بين أعضاء لجنة قيادة الساحة اللبنانية، لم يتأثر بما حاول عادل القيام به إلا "صلاح"، وكان كادراً سرياً جداً في الحركة، لم يكن يعرف عنه أحد، وكان يدير عدة خلايا للحركة، ويشرف من وراء الستار على أحد النوادي الثقافية الاجتماعية في حي شعبي في بيروت الغربية، كان رئيسه شخصية شعبية محبوبة في منطقته، ونشطاؤه الأساسيون من الشباب أعضاء خلايا في حركة التحرير الشعبية العربية، وكانت من نشاطات ذلك النادي إقامة دورات كاراتيه للشباب، وكان المدرب ليس سوى "صلاح".

مرت عدة عقود منذ وقعت تلك الأحداث، ومع ذلك ستجد معظم المعنيين بها ممن لا يزالون على قيد الحياة غير معنيين بتاتاً بالتحدث عنها أو عن العمل النضالي الذي انخرطوا فيه بعد أن وضعوا تلك المرحلة خلف ظهورهم، لكن إحجام هؤلاء عن التأريخ لتلك المرحلة سمح لغيرهم أن يتناولوها بشكلٍ اعتباطي في بعض الأحيان، كما حدث على صفحات "العربي الجديد" التابعة لعزمي بشارة وغيرها في صيف عام 2018، فسلامة كيلة مثلاً خرج من الحركة عام 1988، قبل حلها بعدة سنوات، بسبب خلاف تنظيمي مع ناجي علوش وقيادتها.

ولأن العمر يمضي، والسنوات تركض ركضاً، صار لا بد من وضع بعض النقاط على الحروف قبل أن يبددها الزمن، بالرغم من أن سعة الموضوع وتشعبه وامتداداته ربما تحتاج كتاباً، ولكن ما لا يُدرك كله، لا يُترك جلُه، ولعل مثل هذا الحيز الصغير يتسع لتأدية بعض الأمانات التاريخية لأصحابها، بعض الأمانات، لأن منهم من يفضل أن تظل قصته طي الكتمان، ومنهم من لا أعرف عنها ما يكفي لسردها بدقة.

بعدما خرج عادل من السجن إذن ليحاول إحداث انشقاق في الساحة اللبنانية برعاية أبي إياد من دون أن ينجح بالتأثير، بعد مخاض وهزة نفسية، إلا على عدد محدود من أعضاء الحركة في الساحة اللبنانية، منهم عضو لجنة قيادة الساحة "صلاح"، اختفى عادل تماماً، وقيل أنه هاجر إلى أمريكا اللاتينية، ولم نره أو نسمع عنه شيئاً بعدها. ولولا صلابة لجنة ساحة لبنان، لاختلف أثر عادل كثيراً.

قلنا أن لجنة ساحة لبنان كانت تتألف من سبعة، على رأسهم عادل، فأصبحت بعد انشقاق عادل وانسحاب صلاح تتألف من خمسة، ثلاثة منهم من النساء، واثنين منهم باتا في جوار الرحمن، أحدهما سميرة شفيق عسل (أم إبراهيم، والدة كاتب هذه السطور، وشقيقة منير شفيق)، وكانت تلك هي اللجنة التي قادت العمل السري في الساحة اللبنانية في ظروفٍ أمنيّة في غاية الصعوبة.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

كثيرون يعرفون ناجي علوش (أبو إبراهيم)، والبعض يعرف سميرة عسل (أم إبراهيم، 1940-1992) بصفة سياسية أو اجتماعية، أو بصفتها المناضلة التي وقفت إلى جانب زوجها في أصعب اللحظات، أما دورها في العمل التنظيمي وإدارته، بكفاءة، ومن دون ضجيج ولا استعراض، فلا تعرفه إلا قلة قليلة جداً، وبما أن قانون "المعرفة على قدر الحاجة" كان يُطبق بشكلٍ حرفي في التنظيم في الساحة اللبنانية، لا سيما أن "الغلطة الأولى كانت غالباً الغلطة الأخيرة"، وبما أن مهارات الرفيقة أم إبراهيم كانت تنظيمية أساساً، وتثقيفية، وبما أنها كانت غير معنية بكشف دورها في التنظيم، لا سيما في الساحة اللبنانية، وفيما بعد خارج الساحة اللبنانية، بعدما انتقلت إلى سورية عام 1982، فإن دورها في العمل النضالي، مثل الكثير من المناضلين والمناضلات العرب، ظل من الصفحات المطوية في تاريخ العمل الوطني والقومي، مثل صفحات الكثير من الكتب التي كانت تقرأها، وكانت قارئة نهمة، تكثر من تدوين الملاحظات على الهوامش بقلم رصاص.

ولكن لا بد من الشهادة أن سميرة عسل كانت مناضلة متميزة بدأت حياتها السياسية والحزبية منذ نعومة الأظفار عضوةً في الحزب الشيوعي الأردني في القدس برعاية أخيها منير شفيق، وكانت إلى جوار الشهيدة رجاء أبو عماشة مباشرة عندما أطلقت النيران عليها واستشهدت عام 1955، في مظاهرة ضد حلف بغداد آنذاك، وفي نهاية الستينيات انضمت إلى حركة فتح مع ناجي علوش الذي كانت قد ارتبطت به بعد ذهابها للدراسة في دمشق في بداية الستينيات، وقد شهدت أم إبراهيم معارك عمان في السبعينيات، واعتقلت مع اثنتين من الفتحاويات في أيلول من مستشفى الأشرفية في عمان (البشير لاحقاً)، وتمكن الثلاثة من الهرب في الطريق بعد الأسر مباشرة، ومنذ نهاية السبعينيات مارست أم إبراهيم العمل النضالي في صفوف حركة التحرير الشعبية العربية، وقد رحلت وهي عضوة لجنة قيادية فيها، ومن المفارقة أن العام الذي تركتنا فيه عن اثنين وخمسين عاماً، وهو 1992، هو أيضاً تاريخ حل حركة التحرير الشعبية العربية، ولو قلت أنها كانت أحد ثلاثة أعمدة كان تنظيم الحركة يقوم عليها، لربما اتهمت بالمبالغة والتحيز، ولكنها الحقيقة، وربما أقل قليلاً...

الذين يزايدون على حركة التحرير الشعبية العربية في الساحة اللبنانية بأنها، بحسب زعمهم، لم تشارك، أو لم تشارك بما يكفي، في المعارك، لا يلوون عنق الحقائق فحسب، بل يقفزون عن حقيقة أساسية هي أن المزايدين، في معظمهم، كانوا يتمتعون برعاية الجهة المسيطرة في لبنان آنذاك، وهي قيادة فتح، وأن عناصر الحركة كانوا يتعرضون للمطاردة والاعتقال والتصفية، وأن الحالة برمتها كانت تحت الحصار، حتى من دون النظر إلى دور أبي نضال في ملاحقة كوادر الحركة وتصفيتها، كما فعل الشهيد القائد نبيل عرنكي، مسؤول الساحات الخارجية والمغرب العربي، في إسبانيا في بداية الثمانينيات.

كما أن أولئك المزايدين يتجاهلون، عن سابق إصرار وتصميم، دور أبي إبراهيم (والقيادي الفتحاوي محمد داوود عودة، أبي داوود) في معارك بيروت، لا سيما معارك منطقة الفنادق، التي يمكن أن يشهد على دور أبي إبراهيم فيها أحمد جبريل، أبو جهاد، وغيره كثيرين.

كذلك قامت الحركة بوضع مجموعتين من عناصرها في مواقع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين خلال الاجتياح الصهيوني للبنان في صيف عام 1982، وهذه يمكن أن تشهد عليها قيادات من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كانت تتمتع الحركة بعلاقات ممتازة معها، حتى أن الجبهة الشعبية استضافت مؤتمرين لحركة التحرير الشعبية العربية في معسكراتها في ريف دمشق أحدهما عام 1986.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

أضيف أن بعض أعضاء الحركة في لبنان وسورية جن جنونهم عندما رأوا صورةَ رفيقٍ قيادي شهيداً في مجلة الحركة "الانطلاقة" في أواسط الثمانينيات مع "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية" (جمول) ضد العدو الصهيوني مع الإصرار على عدم إصدار نعي خاص به من قِبل الحركة حرصاً على المجموعة المسلحة التابعة للحركة في جنوب لبنان من الاجتثاث، ثم توالت أنباء متواترة عن رفاقٍ أصيبوا بجراح أو أسروا في أحد معسكرات "أنصار"، مع إصرار الحركة على عدم نسبتهم إليها لدواعٍ أمنية.

إنه لغريبٌ فعلاً أمر هؤلاء الذين يصرون على المزايدة بأنهم قاتلوا أكثر من غيرهم فيما غيرهم كان يمنع عليه أن يظهر فوق سطح الأرض بصفة سياسية، ناهيك عن أي صفة عسكرية... عموماً كان أعضاء الحركة موجودين دوماً حيث يجب أن يكونوا، في الموقف السياسي، وفي الميدان، وعندما حملت البواخر المقاتلين من مرفأ بيروت عام 1982 إلى أرجاء الأرض، كان بعض أعضاء الحركة الفلسطينيين على متنها، وكنت على متن واحدة ذهبت إلى طرطوس، إلى جوار أمي، وكان باستقبالنا أبي، رحمهما الله.

قراءة في رسالة الأمير عبد الكريم الخطابي إلى الرئيس جمال عبد الناصر

إبراهيم حرشاوي

يتسم تاريخ الحركة الوطنية المغربية بكثرة المصادر التي أرّخت لها وبتنوعها إلى درجة تعقّد مهمة الباحثين في تصنيف وتحليل المعطيات خاصةً عندما يتعلق الأمر بظاهرة مثيرة ومسيرة نضالية مهمة غطّت مراحل مفصلية خلال النصف الأول للقرن العشرين كالمسيرة التي سلكها عبد الكريم الخطابي. فليس من السهل أن يتم تسليط الأضواء على الهوية السياسية والأيديولوجية لهذا الزعيم المغربي من دون الرجوع إلى الكم الهائل من المصادر والوثائق التّاريخية التي تشمل – فيما تشمله – مراسلاته مع مختلف الهيئات الرسمية وشبه الرسمية وقيادات الحركات التحررية في الوطن العربي والعالم. ومن بين الوثائق التاريخية التي تلقي الضوء على هذه الجوانب والحيثيات، والتي لم تتعرض لها كتابات المؤرخين المهتمين بالحركة الوطنية المغربية، رسالة الخطابي إلى عبد الناصر التي تضيء على الجانب الأيديولوجي والتوجه السياسي لدى الخطابي على المستوى العربي إبان المدّة الذي قضاها في مصر بين سنة 1947 إلى سنة 1963 وعلاقته أيضاً بالمشروع القومي العربي للرئيس المصري جمال عبد الناصر.

هذه القراءة الموجزة تعتمد على رسالة الخطابي إلى عبد الناصر التي تحمل عنوان 'مذكرة خاصة عن المغرب العربي'، والمحررة في يوم 22 من شهر كانون الثاني سنة 1959 (انظر نص الرسالة في كتاب د. زكي مبارك: محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية الاستقلال، منشورات فيديرانت، الرباط، 2003). وتعد هذه الرسالة من ضمن الوثائق التي تضمنها كتاب 'ثورة الجلاء في شمال المغرب' لقائد انتفاضة الريف المغربي سنة 1958، وهو السيد عبد السلام أمزيان، وهو من القلائل الذين اهتموا ودرسوا حياة عبد الكريم الخطابي، وقد تمكن من قضاء ثلاثة أعوام من حياته في جواره بعد فراره من المغرب عقب انتفاضة الريف سنة 1959-1958.

أما بالنسبة لقراءة مثل هذه الوثيقة فكثيراً ما تؤثر العوامل الذاتية لدى الباحث والمتلقي على حدٍ سواء عندما يُطرح الجانب الأيديولوجي عند عبد الكريم الخطابي. فهناك مثلاً نزوع واضح لدى الحركة الأمازيغية لتحويل الخطابي إلى رمز قومي أمازيغي إستناداً للقراءة المؤدلجة والمشحونة بهاجس الانفصال للفترة التي أسس فيها الجمهورية الريفية في عشرينيات القرن الماضي أولاً، ولمعارضته للمقاربة السياسية لاستقلال المغرب التي تبنتها بعض فصائل الحركة الوطنية المغربية المتحالفة مع القصر الملكي ثانياً. ولهذا تقتضي الموضوعية في أي محاولة لقراءة الجانب الأيديولوجي والسياسي للخطابي تفادي الأسلوب الانتقائي لإثبات مقولة أو فرضية ما عبر معالجة مقاطع بعض النصوص أو حِقب تاريخية معينة خارج سياقها بدلاً من البحث عما يدحض الفرضية أو ما يثبت نقيضها.

أما في هذه المادة فسيُلقى الضوء بشكل عام على موقف عبد الكريم الخطابي من قيام الجمهورية العربية المتحدة ومحاولة ربطه بين مصير هذا المشروع العربي الوحدوي وبين الانتفاضات التي شهدتها منطقة المغرب العربي عقب استقلال تونس والمغرب، بما في ذلك الثورة الجزائرية التي كانت قد دخلت وقتذاك عامها الخامس.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

تنقسم الرسالة إلى ثلاثة محاور أساسية يفسر فيها الخطابي لعبد الناصر آخر التطورات والتحديات في إقليم المغرب العربي، حيث يستهل رسالته بما وصلت إليه الأمور في كل من الجزائر والمغرب وتونس، يليها محور عن المخطط الاستعماري الرامي إلى إجهاض وحدة معركة المغرب العربي وإبعاده عن القومية العربية. أما المحور الثالث والأخير فيتضمن تفسيراً موجزاً عن انتفاضة الريف ومسعاها، وربطها بمصير الوحدة السورية – المصرية التي كانت أهم إنجاز وحدوي عربي في ظل عنفوان التيار القومي.

تعود الفترة التي وجه فيها عبد الكريم الخطابي رسالته إلى جمال عبد النّاصر إلى الحقبة المصرية والتي تعد الأخيرة في مسيرته السياسية، حيث اعتاد الكتاب والمُؤرخون تحقيب سيرته إلى ثلاث مراحل: أولاً، المرحلة المغربية التي بلغت ذروتها مع ثورة الريف، تعقبها المرحلة الثانية عندما نُفي من طرف الاستعمار الفرنسي إلى جزيرة لا رونيون بالمحيط الهندي. أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي تلك التي إستقرّ فيها الخطابي في مصر من سنة 1947 حتّى سنة 1963. وقد امتازت هذه المرحلة على باقي المراحل في كفاح الخطابي كونها مثلت حقبة التحرر الوطني ومناهضة الاستعمار في الوطن العربي ودول جنوب الكرة الأرضية بصفة عامة. وقد استأنف الخطابي في تلك المرحلة نشاطه السياسي والميداني عبر تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي التي أكّدت على عروبة ووحدة معركة استقلال المغرب العربي في ميثاقها التأسيسي.

وعن خلافاته مع النخب الحاكمة في كلٍ من المغرب وتونس ينبغي فهم خلفياتها وحيثياتها عند الاطلاع على المحور الأول للرسالة. لقد أدّى الحراك التفاوضي بين تونس والمغرب من جهة، وفرنسا من جهة أخرى، إلى شرخ داخل الحركة التحررية المغاربية. فمع نيل كل من المغرب وتونس استقلالهما، اعتبر الخطابي هذا الاستقلال غير كامل وأعرج، حيث تمّ خرق بنود 'وحدة المعركة والاستقلال التام' لميثاق لجنة التحرير من طرف قيادات بارزة كالحبيب بورقيبة وعلال الفاسي. ومذاك، طفت الأسباب على السطح التي جعلت التناقضات في المواقف والاستراتيجيات تؤدي إلى انقسام المقاومة المغاربية إلى مشروعين: مشروع براغماتي يساوم على الثوابت مقابل استقلال شكلي، ممثلاً بالنخبة الحاكمة في الدولة المغربية والتونسية، ومشروع ثوري ووحدوي سيتمسك بمبدأ استئصال الاستعمار من جذوره يقوده الخطابي. وكان من تداعيات هذا التناقض في القاهرة تصلب موقف المعارضة التونسية ضد التوجه التسووي للتيار البورقيبي في تونس، فوجود الجناح الراديكالي للحركة الوطنية التونسية بجوار الأمير الخطابي وتطابق أفكارها مع أفكاره زادت من حدة التوتر بين الجانبين. وقد تزعم التيار التونسي الراديكالي آنذاك كل من صالح بن يوسف وعزالدين عزوز والطاهر لسود وغيرهم من القادة الجذريين. أما بالنسبة لخدمة الثورة الجزائرية، والدور التنسيقي مع جمال عبد الناصر الذي لعبه الخطابي لمصلحة الثورة الجزائرية وإرتباطه بأعلى حلقات هرم الدولة المصرية، تجدر الإشارة إلى شهادة أحمد بن بلّة المنشورة في كتاب ' بن بلّة يتكلم: المذكرات السياسية والثقافية للزعيم أحمد بن بلّة' للصافي سعيد. يقول بن بلّة في هذا المضمار: "لا أنسى أنّ العلاقة مع الزعيم الخطابي كانت خاصة. لقد نظر إلينا منذ البداية باحترام شديد. أما الآخرون فكانوا يرونا كشباب متحمس وطيب النية، ولكنه صغيرٌ على 'الأعمال الكبرى'. والخطابي هو الذي تدخل لدى الجامعة العربية من أجل سفري إلى بيرن (سويسرا) للاتصال بمناضلي المنظمة الخاصة. من ناحية بورقيبة كان قد عاد إلى تونس في ذلك الوقت بعد خلاف مع الخطابي الذي كان يرى فيه شخصاً يريد أن يعمل من أجل زعامته الخاصة فقط. وعن طريق الخطابي أيضًا، استطعت أن أتصل بضباط مصريين قريبين من مجلس قيادة الثورة، ثم مع عبد الناصر شخصياً. كان هو الذي هيأ لي اللقاء الأول". وفي السياق ذاته، ينبغي التأكيد على ما سجل من مواقف للخطابي الرافضة لمباحثات إيكس ليبانن، أي المفاوضات التي أجراها الملك محمد الخامس مع فرنسا معتبراً إياها عبثية كونها أفسحت المجال للفرنسيين أن يتفرغوا للجزائر بهدف إجهاض ثورتها.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

في المحور الثاني للرسالة، نبه الخطابي إلى مُخطط إعاقة وحدة معركة تحرير المغرب العربي من طرف الحاكمين في الأقطار المغاربية الثلاث، وسعيهم لإبعاد هذه المنطقة عن القومية العربية. ويثير انتباه القارئ لهذا المحور وعي الخطابي وتمسكه بالمشروع القومي العربي وحرصه على تحقيق أهدافه من خلال إثارته خمس نقاط تمثل حسب اعتقاده خطراً على المشروع القومي العربي وهي:

- إعاقة المجاهدين الجزائريين المسلحين عن تحقيق استقلالهم الكامل لكي تبقى فرنسا مرتكزة بالجزائر، وحتى يمكنها المحافظة على عملائها الحاكمين في تونس والمغرب، وذلك بجعل القطرين الأخيرين جسراً للقوات الفرنسية إلى الجزائر، ولمطاردة المجاهدين وشل حركتهم.

- إنشاء إتحاد المغرب العربي.

- دخول تونس والمغرب في ظروف قومية ودولية معينة وتحت شروط معينة إلى الجامعة العربية لتخريبها وتحطيمها، إما علناً ومباشرةً أو سراً وبشكلٍ غير مباشر وببطءٍ وحذر.

- بث الشكوك وسوء الظن بين شطري الأمة العربية – المشرق والمغرب، بإثارة النعرات الإقليمية والعنصرية والسياسية.

- الدأب على مهاجمة الجمهورية العربية المتحدة باعتبارها أول تطبيقٍ عمليٍ حديث لعقيدة القومية العربية وباعتبارها قاعدة هذه القومية المتحررة.

تلزم القراءة السياقية لموقف الخطابي أعلاه الرجوع إلى مواقفه العروبية والقومية العربية قبل ظهور جمال عبد النّاصر في الساحة السياسية، إذ لا تكفي حجة إقامته بمصر لجعل الخطابي قومياً ناصرياً بشكلٍ تلازمي. ففي البيان التأسيسي للجنة تحرير المغرب العربي الذي نشره الخطابي في بداية سنة 1948 بالقاهرة، أي قبل أربع سنوات من ثورة يوليو، أعطى الخطابي الأولوية للإسلام والعروبة في البندين الأول والثاني مؤكداً بذلك على عروبة المغرب الكبير وانتمائه لبلاد العروبة. فهذه الإشارة هي بمثابة الرد على السياسة البربرية للاستعمار الفرنسي التي بلغت ذروتها بإصدار قانون "الظهير البربري" سنة 1930 لتكريس سياسية التفرقة بين المغاربة. فالموقف العروبي للخطابي يصب باتجاه الفرضية التي وضعها محمد عابد الجابري بخصوص بزوغ الخطاب العروبي لدى الحركة الوطنية المغربية في تلك المرحلة، حيث أكّد أنّ الوعي العروبي في المشرق إذا كان قد نشأ في سياق تحدي سياسة التتريك لعروبة المشرق، فإن الوعي العروبي في المغرب نشأ في امتداد التحدي الاستعماري الممثل في السياسة البربرية (انظر "يقظة الوعي العروبي في المغرب: مساهمة في نقد السوسيولوجيا الاستعمارية"، محمد عابد الجابري، المستقبل العربي، العدد 87، 31 أيار/ مايو 1986).

عربياً، يسجل للخطابي تعريفه العربي للقضية الفلسطينية. وتكفي الإشارة إلى تصدّر القضية الفلسطينية على الصعيد العربي أولويات لجنة التحرير، وقد صرّح الخطابي للإعلام في سنة 1948 بـ"أنّ فلسطين بلادٌ عربية ولا بدّ أن تبقى عربية"، معبّراً بذلك عن إيمانه بعروبة فلسطين وبأنّ أي اعتداء على جزءٍ من الوطن العربي هو اعتداءٌ على الوطن برمّته. ومع اندلاع الحرب لم تُتح الفرصة للخطابي للمشاركة ميدانياً في القتال، لكنّه قام بدوره القيادي من خلال توجيه مجموعة من المتطوعين القادمين من المغرب العربي واحتفاظه بخريطة ميدانية لفلسطين ليتتبع تحركات الجيوش العربية. فمما لا شك فيه أنّ القضيّة الفلسطينية كانت وقتذاك هي المهماز الذي أيقظ الوعي القومي في كل البلاد العربية، وفي المغرب تحديداً كانت هي القضية التي ساهمت في نشأة ميول نحو مقاربة قومية للقضايا العربية لدى الحركة الوطنية المغربية.

مغاربياً، يرجع تخوف الخطابي من إنشاء ‹اتحاد المغرب العربي› إلى الدوافع والحسابات السياسية لعقد مؤتمر طنجة المغاربي سنة ١٩٥٨م، حيث كان الخطابي ككثيرٍ من القوميين في المشرق العربي يتهمون زعيم حزب الاستقلال المغربي - ورئيس هذا المؤتمر- علال الفاسي بطرح وحدة مغاربية لمعاكسة الوحدة المصرية – السورية ومواجهة انتشار المد القومي العربي بقيادة جمال عبد الناصر.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

كما ينطبق هذا الموقف على الحبيب بورقيبة، إذ لم يقتنع هذا الأخير بفكرة الوحدة العربية مما جعله يبتعد عن هذه الفكرة وعن المشرق لترويج فكرة الوحدة المغاربية. وظلت مواقف بورقيبة معادية للمد القومي، فعلى سبيل المثال نجد تونس البورقيبية تقطع علاقاتها مع الجمهورية العربية المتحدة شهر تشرين الأول 1958، لما شعرت هي الأخرى بخطورة الوضع كونها دولة تابعة للنفوذ الفرنسي. وقد اتهم حبيب الشطي مندوب تونس لدى جامعة الدول العربية الجمهورية العربية المتحدة بالاستحواذ والسيطرة على الجامعة، مما يعد اندراجاً للموقف التونسي الرسمي تحت سياسة آيزنهاور وحلفائه المعروفين في حلف بغداد. كما لا يجوز نسيان دعوة بورقيبة لحل القضية الفلسطينية عبر قبول فكرة تقسيم فلسطين وفقاً لقرار الأمم المتحدة في الخطاب الشهير الذي ألقاه في مدينة أريحا بفلسطين، ما يبين موقفه غير القومي من القضايا المحورية العربية مرة أخرى.

أما المحور الثالث والأخير للرسالة فيتطرق فيه الخطابي لضرورة دعم انتفاضة الريف محاولاً إقناع عبد الناصر بربط أهداف هذه الانتفاضة – كما سبقت الإشارة– بالمشروع القومي العربي، حيث جاء فيه عن هذا الموضوع ما يلي: "وأهداف هذه الثورة الحاضرة التي ستؤدي أغراضها بإذن الله إن نالت التأييد من قادة الحرية والقومية العربية هي: أ- في الميدان الخارجي: 1) إجلاء القوات الأجنبية عن القطر المغربي جلاء تاماً وناجزاً، 2) إعادة تطبيق الاستراتيجية التحريرية بفتح جبهة القتال ضد قوات الاحتلال في المغرب إلى جوار الجزائر في سبيل تحرير تونس والجزائر، 3) إعادة القطر المغربي إلى دائرة قوميته العربية الحرة بأسرع ما يمكن وبكل الوسائل الصريحة المباشرة".

احتلت هذه الانتفاضة التي قادها عبد السلام أمزيان مكانة بارزة في التاريخ السياسي المغربي ما بعد الاستقلال، وترجع أسبابها إلى الخيبة التي عمت منطقة الريف في أول سنوات الإستقلال إثر إقصاء نخبتها من المؤسسات الوطنية بالإضافة إلى الغطرسة التي اتسمت بها سياسة حزب الاستقلال في هذه المنطقة. وقد كانت هذه الانتفاضة ناضجة سياسياً بحيث تم تأطيرها من طرف زعيمها أمزيان بحركة سياسية أُطلق عليها اسم "جبهة النهضة المغربية". وقد كانت هذه الجبهة واضحة المعالم ومنسجمة مع تلك التي أوردها الخطابي في رسالته. أما بالنسبة للدعم المصري لهذه الانتفاضة فينبغي التوقف عند الشهادة التي أدلى بها فتحي الديب، مسؤول الاستخبارات المصرية لمنطقة المغرب العربي، في كتابه "عبد الناصر وثورة الجزائر"، إذ كشف عن عدم معاداة عبد الناصر للملك المغربي محمد الخامس نتيجة لمواقفه الوطنية، ولا سيما بعد نفيه من قبل السلطات الفرنسية في شهر آب سنة 1953، بالرغم من الصراع بين عبدالناصر والأنظمة الملكية العربية، وهو ما يوحي أن فتحي الديب ربما يكون قد خلط بين الاستراتيجي والتكتيكي في الموقف الناصري. وربما يُفسر موقف فتحي الديب هذا ما صرح به أمزيان لمصطفى أعراب في كتابه " الريف بين القصر، جيش التحرير وحزب الاستقلال" بخصوص تنبيه فتحي الديب صديقه علال الفاسي عن إرسال مصر باخرة محملة بالسلاح لدعم المنتفضين بالريف مما أفشل تموين الانتفاضة وعرّض قادتها لخطر الإعتقال والتصفية. وهو ما يوحي أن هناك مراكز قوى داخل الدولة الناصرية كانت تعمل على النقيض من توجهات عبدالناصر لا في مصر فحسب، بل في غيرها من الأقطار العربية، وأن تلك المراكز كانت في حالة تضاد مع عبدالناصر ومع حسابات الخطابي المنبثقة من منطق تجربته الفريدة في نوعها المتمثلة في قيادته الحرب الشعبية ضد الاحتلال الإسباني في منطقة الريف شمال المغرب، إذ ليس من المنطقي أن ترسل مصر باخرة سلاح لتقوم بتسليمها بعد ذلك...

وهكذا يمكن أن نستنتج أن ما اصطبغت به رسالة الخطابي من توجه ناصري، ليس اختياراً "تكتيكياً" من جانبه لإقناع زعيم الدولة التي كان يقيم فيها، بقدر ما هو تناقض جذري مع المشروع الاستعماري في الوطن العربي وإيمانٌ راسخٌ بمبادئ العروبة والإسلام والوحدة القومية. ولذا تبقى تجربة الخطابي السياسية في مصر تعبيراً عن مشروع تحرري أنبتته الحركة الوطنية المغربية والحركة الإصلاحية العربية والتي أخذت بعداً أكثر قومياً وعروبياً باحتكاكها والتحامها بالخطاب القومي العربي والمشروع الناصري. فلا يمكن بأي حال من الأحوال إنكار صفة القومية العربية عن التوجه السياسي والإيديولوجي للخطابي إبان فترته المصرية كما لا يمكن إنكارها عن رفاق دربه المغاربيين كأحمد بن بلة وصالح بن يوسف الذين مثلوا الجناح الجذري للحركة التحررية في المغرب العربي.

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

الجذرية السياسية كطوق نجاة للأمة العربية

فارس سعادة

في ظروف التراجع والضعف والهوان القومي الذي يصيب بعض الأمم، تصبح المراجعات النقدية والفكرية للتاريخ الحديث أمراً مهماً ذا أولوية لدى "النخب" وحتى لدى المؤسسات الحاكمة، أي الدولة، بعيداً عن شكل هذه الدولة، وينطبق هذا الكلام على مختلف التنظيمات الاجتماعية من قبائل أو أحزاب وجمعيات سياسية وثقافية، فالتراجع والضعف يتطلب دائماً مراجعة نقدية لكل ما هو موجود أو وجِد وأثّر في واقع تلك التنظيمات الاجتماعية.

وبالرغم من عدم وجود سلطة عربية حقيقة ومستدامة للأمة العربية على نفسها منذ أكثر من خمسمئة عام، إثر الاحتلال التركي العثماني وسيطرته على أغلب مفاصل الحياة اليومية العربية، فقد كانت تجربة محمد علي باشا للتحرر من السيطرة العثمانية تجربة مهمة ولها كبير الأثر في تاريخ الأمة العربية الحديث، بالرغم من أن هذا التاريخ الحديث لم نجد له من المؤرخين العرب في تلك الفترات أحداً تقريباً، وهذا يعني أن يوميات تلك الفترات، أي منذ خمسمئة عام، ضاعت تقريباً، إلا من خلال مصادر تركية أو غربية، ومنها المصادر الاستشراقية، وهي على أهميتها وضعت في فترة متأخرة نوعاً ما.

على أية حال، شكّل التاريخ الحديث للعرب تاريخاً للقهر والاضطهاد، للحرب والموت والتخلف، في مقابل تاريخ الحشود والثورة والازدهار للشعوب الأوروبية، فمنذ أن وُقّع صلح وستيفاليا بين الممالك والإمبراطوريات الأوروبية، وصولاً إلى الثورة الصناعية، بدأ مصطلح "القومية" والحدود القومية "سياسياً" بالتبلور بشكل فعلي وحقيقي، وهذا ما شكّل أساساً للسياسة الجديدة في أوروبا.

لا جدال في أن الكثير من هذا الازدهار الأوروبي كان على حساب الشعوب الأخرى في الأراضي الجديدة "القارتين الأمريكيتين" وأستراليا، والشعب العربي وغيره من شعوب آسيا وإفريقيا، إلا أنه وفي نفس الوقت كان الاحتلال التركي العثماني أحد الأسباب التي أسهمت بشكلٍ كبير في هذا الاستغلال الذي صب في المحصلة، من خلال آلية التبادل غير المتكافئ، في طاحونة تراكم رأس المال الأوروبي، وفي كبح جماح الدفاع والتطور العربي على مستوى الاقتصاد ومن ثم الثقافة التي تراجعت بعد القرن الخامس عشر ميلادي إلى مستويات دنيا مقارنة بما كانت عليه قبيل أفول السيطرة العربية في غرناطة.

تاريخ القهر العربي

تبلور هذا التاريخ بشكل واضح بعد هزيمة محمد علي باشا من قبل جيوش أوروبا والدولة العثمانية منتصف القرن التاسع عشر (المسألة الشرقية)، ووضع مصر تحت بنود اتفاقية مذلة من خلال تفكيك الجيش المصري وتدمير البنية التحتية والصناعية المصرية وتفكيك منظومة التعليم في مصر، وهو ما أعاد الأمة العربية إلى نقطة الصفر من ناحية عدم وجود سلطة عربية مركزية وبالتالي عدم وجود قرار عربي أساساً، هذه المعادلة بين عدم وجود سلطة، أي عدم

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

وجود قوة لدى العرب، تساوي عدم وجود مستقبل عربي قومي حقيقي، مما أدى إلى إفرازات سلبية تسببت في ضياع الهوية العربية الأصيلة، أي عدم وجود هوية عربية واحدة أساسية وضياعها بين الهويات الفرعية الحقيقية والمتخيلة أو المصطنعة داخل عقول ومخيلات المستشرقين والمؤسسات "الثقافية" الاستعمارية الغربية التي حولت الأمة العربية إلى مسائل بحثية تاريخية وأنثروبولوجية من خلال معاهد الاستشراق والآثار و"التاريخ الشرقي"، وهذا ما أنتج الآن في واقعنا الحالي أزمات متخيلة على مستوى الهوية ثقافياً وسياسياً.

تاريخ القهر هذا، تراكم حتى أنتج نوعاً من التبعية التاريخية للأمة العربية على كافة المستويات أهمها الاقتصادي والسياسي، في ظل غياب تاريخي للسياسة العربية في العصر الحديث، وهذا ما حدّ من ظهور مؤسسات سياسية عريقة خاصة بالأمة العربية تعمل من أجل مصلحتها من جهة، ورافق ذلك عدم تبلور طبقة برجوازية صناعية عربية تعمل لأجل مصلحتها من جهة أخرى، وبالتالي وفي فترات محددة من أجل مصلحة أمتها وإن بشكل غير مباشر.

بالنتيجة لا عمل مؤسسي تاريخي مستمر ومستدام للأمة العربية، وربما يكون هذا الغياب قد سهّل من تغلغل النزعة الفردية للفرد العربي لا سيما في فترات الهوان القومي، ففي مقابل الخوف الأوروبي من الحشود والجماهير بسبب تاريخ شعوبها "الثوري" من فرنسا إلى ألمانيا، عملت البرجوازية والرأسمالية فيما بعد على تعزيز الروح الفردية في أوروبا، فكان الغياب المؤسسي للأمة العربية نقطة ضعف اخترقت من خلالها الأفكار الغربية الحداثية والما بعد حداثية، بصورتها السطحية طبعاً، المستوردة والمتخيلة، الفرد العربي من خلال مؤسسات الاستشراق الأوروبية ومن ثم من خلال المنظمات الممولة أجنبياً.

فعلى مستوى التجارب التاريخية، سجلت تجربتا محمد علي باشا وجمال عبد الناصر كتجارب قومية غير ناجزة نجاحاً محدوداً في تحرر الأمة العربية من التبعية والتخلف والتجزئة، وقد تم كسر هذه التجارب من قبل الغرب بشكل كبير، ولكن عدم استمرار هذه التجارب أو إعادتها واستدامتها يعود أساساً إلى عدم وجود تراكم تاريخي يساهم في رفد هذه التجارب بالأفراد القادرين على حمل المهام التاريخية للأمة العربية، فقد حاصرت جيوش أوروبا مصر محمد علي باشا وأنتهت تجربته ببساطة ولم تتكرر المحاولة إلى ما بعد أكثر من مائة عام عبر ثورة 23 يوليو المجيدة، وخلال المائة العام ما بين التجربتين لم تستطع مصر، بالرغم من انتفاضة أحمد عرابي، من إنتاج سيادة وطنية حقيقية عليها بسبب السيطرة الأوروبية التي لم تعطِ المجال لتطور المؤسسات المصرية خصوصاً على المستوى الاقتصادي بسبب سيطرة فرنسا وبريطانيا على الاقتصاد المصري وتحويله إلى إقطاعيات زراعية ورافد للمواد الخام للقارة الأوروبية.

إذن الاحتلال والتبعية كانا سبباً رئيسياً في عدم تراكم العوامل التي تسمح بنشوء تجارب ومحاولات حقيقية للتطور القومي والوطني العربي، مما قزم الطموح العربي إلى طموح فردي لا جماعي، وطني (قُطري) متخيل لا قومي حقيقي، خصوصاً مع عمل مؤسسات ومعاهد الاستشراق على خلق هويات فرعية متخيلة، من فرعونية إلى فينيقية و"أمازيغية" وغيرها من الهويات المستوردة والمختلقة.

استمرارية الضعف والهوان العربي لم تجد من يوقفها لأسباب مختلفة، وعلى رأس هذه الأسباب التجزئة التي خُلقت بفعل قرار أوروبي بحت، في فترة لم يكن فيها للعرب سلطة سياسية بل كانوا قد تحرروا لتوهم من الاحتلال التركي العثماني ليصبح وطنهم خرائطَ على طاولة القوى الاستعمارية الأوروبية، وغنائمَ للمنتصرين في الحرب العالمية الأولى من فرنسا إلى بريطانيا.

إذن لم يُعطَ العرب فرصةً للتحرر القومي والاستقلال الذاتي لأسباب مختلفة، ارتبطت جميعها بشكلٍ مباشر أو غير مباشر بالسيطرة الأوروبية والتدخلات الخارجية، إضافة إلى عوامل داخلية متعددة تغلغل الأجنبي من خلالها لكنها أيضاً ترتبط بعدم وجود استقلال قومي للعرب على المستويين الاقتصادي والسياسي.

هذه السيطرة الأوروبية على الوطن العربي المجزأ، خلقت أنواعاً متعددة من التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية، وقد ارتبطت تلك التبعية بطبيعة خلق الأقطار العربية الحديثة وتكوينها بعد اتفاقيات سايكس وبيكو وسان ريمو ومعاهدات لوزان وسيفر وغيرها من الاتفاقيات التي أضرت بالعرب ووطنهم، ولقد أثبتت التجارب بأن الانفكاك من

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

هذه التبعية لتحقيق الاستقلال كان يواجه بترسانة أسلحة غربية ثقافية واقتصادية وسياسية وعسكرية، من مصر إلى العراق وسورية وليبيا، ولم تكن الجماهير وحشود العرب نداً للمؤسسات الغربية لأسباب ترتبط كما ذكر سابقاً بعدم اكتمال التجارب العربية التي كانت تهدف للتحرر والوحدة والنهضة في مصر تحديداً، فعدم اكتمال التجارب واستدامتها منع قيام مؤسسات سياسية تستطيع حمل المهام التاريخية للأمة العربية على عاتقها من جهة، إضافة إلى سيطرة البدائل السياسية الرجعية أو المتهاونة على الصعيد القومي في مواجهة المخاطر من جهةٍ أخرى، بدلاً من خلق ثقافة المقاومة التي تستند إلى مواجهة ومناهضة الإمبريالية.

هل ننتقل من الدفاع إلى الهجوم؟

إن غياب قاعدة مصنعة لدينا كعرب يقلص من خيارات مواجهة الإمبريالية، كما أن ضعف الأحزاب العربية التاريخية أو عمالتها للغرب وتبعيتها لها أو قصور وعي هذه الأحزاب تاريخياً يقزم أيضاً فرصة قيام ثورة شعبية حقيقية رافضة للواقع وأدواته كما توهم البعض في "الربيع العربي" الذي لم يجلبْ سوى الدمار للأقطار العربية وتحديداً الرافضة للتبعية والخضوع من سورية إلى ليبيا. ففي ظل هذه الحقائق تصبح فرصة "رفع الرأس" على المستوى القومي لرؤية الطريق السليم للتحرر والنهوض صعبة، لا بل مخاطرة غير محسوبة، حتى بالنسبة لدول مركزية مثل سورية أو مصر في ظل فشل تجارب سابقة في العراق ومصر لتأسيس "الإقليم-القاعدة"، وهي فكرة أثبتت عدم صلاحيتها في ظل التفوق العسكري للإمبريالية جواً وبحراً وبراً، وإذا نظرنا إلى فكرة "الكتلة التاريخية" التي نادى بها الجابري كفكرة نستطيع من خلالها كعرب توحيد الصفوف ورصها في مواجهة الإمبريالية، من وجهة نظره، سنجد بأنها فكرة مغلوطة نظرياً إذ أنها أُخرجت من سياقها الثقافي والقومي، إضافة إلى أن دعاة هذه الفكرة وتحديداً من طيف الإسلام السياسي والقوميين الليبراليين يستخدمونها كآخر طوق للنجاة بعد سقوطهم في مصر وسورية وغيرها، وتجلي عمالتهم للغرب أو للرجعيات العربية والإقليمية، إضافة إلى أنها فكرة لا تصلح للتقريب بالنظر إلى التاريخ الدموي للإسلام السياسي في كل أقطار الوطن العربي وضد القوميين العرب تحديداً.

ثلاثة اتجاهات تاريخية حديثة نراها لا تصلح ولم تنجح في تثبيت أقدام الأمة العربية على طريق التحرر القومي، أولها اتجاه "الإقليم-القاعدة"، رغم كبير التضحيات التي قدمها القوميون في سبيل إنجاحه، وثانيها الاعتماد على وعي الجماهير العفوي في واقعٍ رثٍ ومتخلفٍ لقلب الواقع بشكل ثوري، وثالثها "الكتلة التاريخية" التي بمجرد مناقشتها بشكل علمي منضبط ستثبتُ فشلها خصوصاً في ظل عمالة وخيانة الإسلام السياسي لأمته العربية وبيعه لها في أسواق الناتو.

الجذرية السياسية كطوق نجاة للأمة العربية

مصلحة الأمة العربية كبوصلة محركة للقرار السياسي تعتمد على تبني منهجية علمية في عملية اتخاذ القرار، تستطيع من خلالها بناء مؤسسات سياسية على قدرٍ عالٍ من الثورية، وخصوصاً في ظل المواجهة المفتوحة مع الرجعيات العربية الآن وفي ظل تعدد أقطاب القوى العالمية مع تراجع الإمبريالية وتحصنها بالحروب الحديثة "الجيل الرابع"، وفي ظل سيطرة اليمين السياسي على مفاصل الحكومات في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية.

من الواضح أن أقطاراً عربية مثل سورية والجزائر أثبتت أنها قادرة على الدفاع عن أرضها ومواطنيها في وجه المؤامرات والإرهاب التكفيري الممول أجنبياً وعربياً من قبل الرجعيات العربية في كازيات الخليج العربي، هي المؤهلة أكثر من غيرها، بصرف النظر عن توفر الرغبة لديها أم لا، لتبني القرار السياسي الجذري بعيداً عن منزلق "القانون الدولي" من جهة، وعن التاريخ الرسمي للأنظمة العربية من جهةٍ أخرى، إذ أنها من خلال اعتماد الجذرية الثورية التي تنادي بها "لائحة القومي العربي" ستستطيع ربط نفسها مع الجماهير العربية بشكل كبير وتكثيف رصيدها الشعبي من جهة، وحشر الكثير من الأحزاب والمعارضات العربية والأنظمة الرسمية في زاوية ضيقة سياسياً وأخلاقياً، فصحيح أن هذه الدعوة لتبني الجذرية السياسية لتحقيق مصلحة الأمة العربية لا تدعو سورية مثلاً لإعلان الحرب على الكيان الصهيوني، أو تدعو الجزائر لتوحيد الأمة العربية بالقوة فوراً، إلا أنها تدعو إلى انطلاق العمل السياسي من قاعدة مصلحة الأمة العربية، أي من قاعدة قومية أساساً، تودي لتأسيس الوحدة العربية سياسياً، فالعمل من أجل مصلحة الأمة العربية يعني فيما يعنيه توجيه البوصلة السياسية نحو مصلحة الأمة العربية والوقوف في وجه كل ما هو معادٍ للعرب.

والطريف في هذا، أن العمل على الحفاظ على الثقافة العربية، من خلال تعزيز اللغة العربية ومؤسساتها مثلاً، هو في الحقيقة من صلب الجذرية القومية، وهو أسهل ما يمكن أن تنفذه دولٌ مثل الجزائر مثلاً أو مصر، إضافة إلى أن تعزيز قوة الدولة يتطلب منها أن تعزز هويتها القومية، وأن تعمل على رص صفوف مواطنيها وكل هذا يتطلب منها الجذرية في القرار السياسي وعدم الالتفات للأصوات الداعية مثلاً إلى مراعاة "خصوصية الأخر" على سبيل المثال، إذ أن خصوصية الأكثرية هي الأساس، والعروبة هي العام والخاص لكل مواطن عربي إن اعترف بعروبته أم لا، فالهوية القومية هي هوية واحدة، أما الهويات الخاصة الصغيرة فقد نجد في البيت الواحد أكثر من هوية أو شخصية لكل فرد من أفراده، وهنا أعني الشخصية الفردية لا الهوية القومية لكي لا تختلط الأمور مع بعضها البعض.

قصيدة العدد: حكاية كبيرة/ ناجي علوش

حكايةٌ كبيرة*

وأفقتُ ألمسُ هدأةَ الذكرى وقد ضجَّتْ عروقي
بحكايةِ الأمسِ القصيرة
بحكايةِ الأمسِ الكبيرة
يومَ التقينا...في الطريق
قلبانِ يبتسمانِ...للغدِ...للبراعمِ...للشروقِ
قلبانِ تعصفُ فيهما أنشودةُ النورِ المثيرة
ودفنتُ ذكراكِ المنيرة
في عمقِ أعماقي الفسيحةِ...في انتفاضي...في احتراقي
في صبْوتي لغدٍ طليقِ
في صبوتي...لمنى نضيرة
ومضَيْتُ يدفعُني اشتياقي
ومررْتُ بالأشواكِ...بالأمواجِ...بالدمِ...بالدموعِ
بحكاية الأمس القصيرة
بأبي...بأمي المستجيرة
بجموعِ إخوتنا الصغارِ...الباحثين عن الربيعِ
في ظلمَةِ الليلِ المروعِ
بالصارخينَ على المذابحِ...في الجزائر والعراقِ
في الشامِ...في رملِ الجزائر
(بالمجرمين) يدنّسون ثرى ملاعِبِنا الفساحِ
ورأيتُ وجهَكِ بينَ آلاف الوجوهِ المستطيرة
بين الجماهيرِ الغفيرة
بين الرفاقِ
متحفزاً للملتقى في الليلِ...في وعْرِ الطماحِ
في الشمسِ...في وهجِ الظهيرة
ينسابُ منه سَنى السماحِ
وتشِعُّ فيه منى نضيرة
والأرضُ...تعصِفُ بالرياحِ

العدد رقم (63) صدر في 1 آب عام 2019 للميلاد

بعويلِ (آلهةِ السلاحِ)
ويداكِ تمتدَّانِ في الظَّلماءِ...من بين الرماحِ
لتضمَّ...في صمتٍ...جراحي
مدِّي يديكِ فقد ذكرت حكايةَ الأمسِ الكبيرة
يومَ التقينا في الطريقِ
وذكرتِ أغنيةَ الرفاقِ
في الشامِ..في ليلِ العراقِ
في تونسَ الخضراءَ...في قممِ العرائسِ...في الجزيرة
مدِّي يديكِ ومزِّقي عن ليلِكِ المصلوبِ نيْره
فلقد رأيتُك في انطلاقي
بينَ الجماهيرِ الغفيرة
بينَ الرفاقِ
تتمزَّقينَ أسىً وغيرة
لتهدمي عن قلبكِ "المسجونِ" سوره
وتقاسميني...ليلَ جوعي
جوعي الذي أحياهُ...أحلاماً منمقةً كثيرة

*يكثر أن تَنشدَ اللغةُ الوزنَ والقافيةَ، قد تلدُ الفكرةَ، الموقفَ أحياناً، أو قد يولدان من رحمِها، لا فرقَ، أو قد تقرأُ سطوراً فتسمعُ لها رنيناً، ويخيلُ إليك عالمٌ من الوزنِ والألوانِ والعاطفةِ، وحين تخلدُ في هدأةِ الليلِ، تنساها، تحاولُ عبثاً أن تبحث عما قرأتَ، فتوقنُ حينَها أنَّ ذلكَ ربما كانَ نظماً، كانَ لهواً، أو استعراضاً لغوياً، بالحروفِ، بالكلماتِ، والسطورِ الطويلةِ، لا تتركُ من الأثرِ إلا ما يموتُ ويفنى.

لكنَّ اللغةَ كأيِّ كائنٍ حيٍّ آخرَ، تضحكُ، تبكي، تحترقُ شوقاً، تعشقُ، تغتربُ، تحزنُ، تهزأُ، ترقصُ وتتاضلُ، وتنتفضُ، تُهزَمُ وتنكسرُ، وتنتصرُ أحياناً كثيرةً، وتلعبُ كطفلٍ صغيرٍ، وتحبو، وتنضجُ، وتموتُ في عزِّ الشبابِ، ولا تشيخُ، لكنَّها تعودُ وتولدُ مع طلوعِ الفجرِ، لتكتبَ بيديها حياةً، قصيدةً، تعيشُ ما عاشَ الحقُّ، وما عاشَ المبدأ، حينئذٍ فقط، تكونُ اللغةُ لغةً، أمَّ الشعرِ وأمَّ الحبِ، وأم الخيالِ.

(حكاية كبيرة)، من منشورات الكويت، آب /1956، قصيدةٌ قتلَ فيها ناجي علوش اللغةَ ليلاً، وأحياها مع طلوعِ الفجر، فكانَت، وكانَ الشعرُ.

كاريكاتور العدد

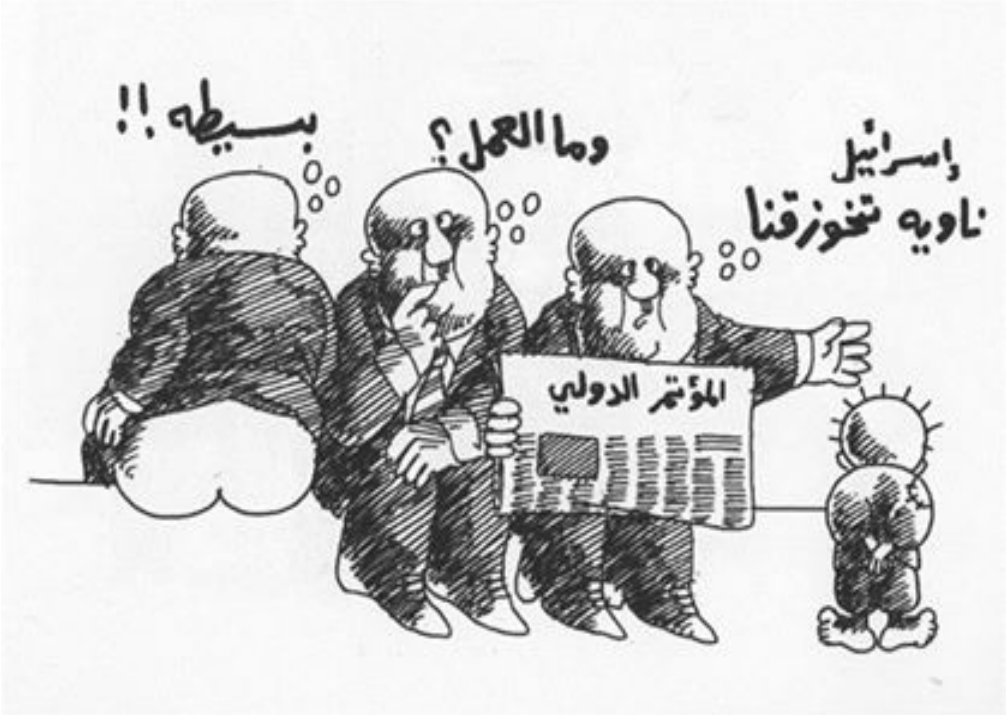

انتهى العدد